أكوا تيرا

سلمى الشربيني

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان: مدينة العبور - الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1
هاتف: 1003288596 (0020)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

أكوا تيرا

سلمى الشربيني
الطبعة الأولى، القاهرة 2020
تدقيق لغوي: هبة ممدوح
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
غلاف: عمار جمال العبد
رقم الإيداع: 22194 / 2020
I.S.B.N | 978-977-6794-58-0

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

سلمى الشربيني

أكواتيرا

(رواية)

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

الإهداء

لمن أباهي بها أهل السماوات والأرض.

أمّي

ولمن علمني كيف أسطو بقلمي على الأوراق

أبرحها أدبًا.

أبي

سلمى الشربيني.

الفصل الأول | حازم حسين عابد

دخل غرفته وجهه شاحب اللون يبدو عليه الاستياء، بالكاد أنهى تبديل ملابسه حتى وجد باب الغرفة يُطرق.

حازم:

– ادخل.

دخلت والدة حازم وقد ارتسم على وجهها ملامح الغضب.

– الخبر اللي وصلني دا صحيح يا حازم؟

حاول تغيير الموضوع:

– طابخة لنا إيه يا ست الكل علشان أنا جاي هفتان ومش قادر أصلب طولي، وكنت لسه هعمل سطو على المطبخ حالًا.

– وجاي لك عين؟ يا برودك! أنتَ يا ابني ما عندكش دم! أنتَ مش هترتاح غير لما تموتني!

– ليه بس بعد الشر ربنا يطول لي في عمرك!

– أنتَ سقطت تاني يا حازم!

– كنت عارف إنهم هيبلغوكِ.

– وأنت كنت عايز تخبي عليَّ! يا ابني دي تاني سنة تسقطها يعني هتتفصل من الكلية.

– نصيبي كدا بقى يا ماما، وأنتِ مؤمنة وموحدة هنكفر بقى ولا إيه!

– يا ابني أنتَ عايز تشلني، هو إحنا مقصرين معاك في حاجة؟ بتطلب حاجة ومش بتاخدها!

– يوه بقى يا ماما! أنتِ ما بتشبعيش من الأسطوانة دي! بقول لك جعان، أنا هروح أشوف إيه حاجة تتاكل.

– استنى هنا أنا بكلمك، أنتَ جايب برود الأعصاب دا منين! مش مكسوف من نفسك وزمايلك اللي في سنك سبقوك بسنتين، أنتَ عارف أبوك هيعمل فيك إيه! عميد الكلية شخصيًّا كلم أبوك وبلغه بالخبر.

– آه.. وزمان سيادة معالي الدكتور على وصول، وهيجي يوبخ فيَّ! ما هي الحفلة عليَّ بقى.

– احترم نفسك وأنت بتتكلم عن باباك.. إيه الأسلوب البيئة دا!

– بقول لك إيه يا ماما.. بابا زمانه جاي وهنبدأ نشيد بلادي بلادي وقصة كفاحه بتاعة كل سنة؛ فلو سمحتِ سيبيني أطلع أشوف حاجة أكلها وأرجع أناملي شوية قبل ما يجي يديني محاضرته.

– أنتَ ما عتش نافع، أنا استعوضت ربنا فيك.. إنسان فاشل.

***

خرجت وملامح الغضب تلتهم وجهها، أغلق حازم باب الغرفة وألقى بنفسه على السرير، ثم تناول هاتفه ليجري مكالمة تليفونية.

– ألو.

– ألو، أيوة يا حبيبتي أنتِ فين؟ بحاول أكلمك من الصبح ومش بتردي عليَّ قلقتيني عليكِ.

– أنا كويسة.. سوري كنت نايمة.

– نوم الهنا.

– المهم دلوقتي.. سيبك من كل دا، طمنني عملت إيه؟

– أنا سقطت تاني يا مريم.

– يا نهار! سقطت تاني يعني إيه؟ يعني كدا خلاص هتتفصل من الكلية!

– أيوة.

– مامتك وباباك عرفوا؟

– عرفوا وماما لسه خارجة من أوضتي حالًا واديتني موشح يسم البدن ولسه بابا، أنا مخنوق أوي بجد.

– طب إزاي دا حصل؟ أنتَ مش كنت قايل لي إنك بتحل كويس في الامتحانات؟

– ماعرفش يا مريم.. بجد ماعرفش أنا ليه بيحصل لي كدا، خليكي جانبي يا مريم أنا محتاجك أوي الفترة دي.

– أنا جانبك وعمري ما هتخلى عنك.

صوت طرق على باب الغرفة..

– طب سلام دلوقتي يا مريم علشان بابا شكله جه.

قام ليفتح الباب..

– بابا! إزي حضرتك، اتفضل.

– صحيح اللي سمعته دا!

– أيوة يا بابا صح.

– أنا نفسي أفهم أنتَ عايش بتعمل إيه في حياتك، أي شاب في سنك يتمنى يعيش ربع عيشتك، روتين يومك الممل بالنسبة لك دا حلم بالنسبة لشباب كتير، لبس من أغلى الماركات، وفسح وخروج وفلوس مرمية تحت رجليك بتتمرمغ فيها من غير ما تحس الفلوس دي جاية إزاي ولا بتعب قد إيه علشان أوفر لك كل اللي بتتمناه؛ علشان ما

يبقاش حد أحسن منك، بحاول أعمل منك راجل وأنت مصمم تفضل عيِّل. متخيل شكلي إيه قدام الناس لما يبقى واحد في مكانتي دي عنده ابن فاشل زيك؟ نظرة الناس ليَّ هتكون عاملة إزاي وأنا دكتور وابني صايع، أنتَ نسل يعر وماتشرفش بيه.

– أنا كان ممكن أنجح يا بابا لو كنت كلمت العميد، وممكن كمان ماتفصلش من الكلية لو كلمت الدكاترة صحابك واتوسّطت لي عندهم.

– عايزني أشتري لك النجاح بالفلوس! عايز تنجح بالواسطة والمحسوبية! عايز ناس زي دول يبقى ليهم فضل عليَّ سواء كان العميد أو الدكاترة اللي بيدرسوا لك؟

– وهو حضرتك يهمك شكلك قدام الناس أكتر من مستقبلي؟

– مستقبلك لو كنت حريص عليه كنت تعبت علشانه بدل مانت بتضيع سنين عمرك على الفاضي.. كل اللي في دماغك حتة الجلد المدورة اللي بتجري وراها وشايل الدنيا كلها من دماغك.

– بحلم أبقى لاعب مشهور وأبقى ناجح في مجالي زي ما حضرتك ناجح في مجالك.. سيبني يا بابا لمرة واحدة في حياتي أختار طريقي وأمشي وراء الحاجة اللي بحبها، خد الفلوس واللبس خدهم وسيبني أختار المكان اللي شايف نفسي فيه. أنا هنجح لما يكون عندي إرادة وصبر على حاجة اخترتها علشان بحبها مش حاجة اتفرضت عليَّ.

– هو علشان عايز أأمن لك مستقبلك بشهادة محترمة أبقى بفرض عليك! ما تبص لأخوك حسام.. ليه ما بيفكرش زيك كدا؟ طالب مجتهد وكل نتايجة تفرح، شيء يشرف.. دا اللي يخليني أرفع راسي وسط الناس وأتباهى إنه ابني.

– يا بابا أنا تعبت من كتر ما بتعايرني أنتَ وماما بحسام.

– يا ريت الكلام بيجيب معاك فايدة أو بتتأثر. على العموم أنا قررت إنك تنزل تشتغل في فترة الإجازة دي، ومش هتاخد مني قرش واحد لحد ما أشوف هعمل إيه في موضوع استكمال دراستك دا.

– أشتغل! هشتغل إيه؟

– هتشتغل أي حاجة.. إنشالله تبيع مناديل في إشارات المرور.

– نعم! حضرتك عايزني أنا أبيع مناديل في الإشارات! طب وبالنسبة لشكل حضرتك قدام الناس ومكانة حضرتك الرفيعة؟

– أولًا الشغل مش عيب، ثم إني بهيأك علشان تكون راجل وتتحمل مسؤولية وتعرف الجنيه بيجي إزاي.

– بس يا بابا...

– ما بسش.. ومن بكرة تنزل تدور على شغل.

خرج والد حازم من الغرفة، فجلس حازم يفكر فيما قاله والده وكيف له أن يتحمل هذا العبء الذي كلَّفه به.

احتضنت ملامح الحزن وجه حازم وبقى شاردًا يفكر ماذا سيفعل.. أين يذهب في هذا الوقت المتأخر؟ هذا الشاب العشريني، الطالب بالفرقة الأولى قسم الفيزياء بكلية العلوم جامعة المنصورة، ذو البشرة الحنطية بلون سنابل القمح، تزيّنها لحية ناعمة قصيرة وعينان بنيتان إذا أمعنت النظر فيهما لحسبت أن أنهارَ عسلِ الجنةِ تفيض فيهما، ويزيد من جاذبيته هذا السواد الحالك الكامن في خصلات شعره الناعمة الطويلة التي تلمع وكأنها قوارير فضة، واسع الصدر ذو قوام ممشوق متناسب مع طول قامته.

يعيش في مدينة المنصورة –إحدى المراكز التابعة لمحافظة الدقهلية– مع أسرته المكونة من والده الدكتور حسين عابد جراح المخ والأعصاب الشهير، ووالدته الدكتورة هناء صلاح، وأخيه الأكبر حسام.

قرر حازم أن يذهب إلى صديق طفولته عماد ليشاركه هذا الحزن كما اعتاد أن يفعل كلما ضاقت به السبل.

***

عماد رفعت

عماد صديق حازم المقرب، يعيش مع والدته وشقيقته التوأم غادة، ووالده الدكتور رفعت حرب عميد كلية العلوم، الكلية التي يدرس بها حازم وعماد.

وصل حازم إلى منزل عماد وجلسا يتحدثان..

– إيه يا أبو الصحاب مالك متنشن ليه؟

– متنشن ليه! بقول لك سقطت يا عماد.

– وإيه يعني يا زوما هي أول مرة!

– طبعًا حقك تقول كدا، مانت ابن العميد وبتنجح كل سنة بتقدير.

– صلِّ على النبي في قلبك يا حازم.. ما تخليش الزعل يسود قلبك كدا يا جدع أمَّال.

– مش سواد والله، بس أبويا مبهدلني، تخيل إنه عايزني أنزل أشتغل في الإجازة.

– تشتغل! أنتَ تشتغل؟ وهتشتغل إيه بقى إن شاء الله؟

– سألته نفس السؤال دا، ردّ وقال لي: اسرح بمناديل في الإشارات.

– ههههه مناديل! هو دكتور حسين افتقر ولا إيه؟

– لأ مافتقرش، بس قال إيه يا سيدي عايزني أعتمد على نفسي وأتحمل المسؤولية وقال لي ما عادش في فلوس وأشتغل وأصرف على نفسي.

– أوبا.. طب وهتعمل إيه؟

– مانا لو عارف هعمل إيه ما كنتش جيت لك!

– طول عمرك واطي وبتاع مصلحتك.

– حبيبي يا عماد تسلم.

– على العموم يا عم ولا يهمك.. أنا عيني ليك، كل اللي تطلبه هيجي لك وشوف هتحتاج إيه وأنا رقبتي ليك، أنت أخويا يا حازم.

– أنا كنت عارف إني لو هنت على كل الناس مش ههون عليك، أنا مش عارف لولاك أنتَ ومريم كنت هعمل إيه!

– مريم! هي مريم لسه بتكلمك؟

– أيوة ليه بتسأل؟

– أصلك من زمان ما جيبتليش سيرتها.

– أيوة؛ لأن إحنا الفترة اللي فاتت كلامنا قل وبقى من النادر جدًا إننا نتقابل أو نقعد نتكلم.

– طب وأنت ما تعرفش إيه السبب في التغيير دا؟

– سألتها كتير والله يا عماد، قالت لي إن أبوها شاكك إنها على علاقة بحد وخايفة يعرف إننا بنتكلم فبقينا بنتكلم كل فين وفين كدا. دا أنا حتى قصدت أمشي من قدام بيتها وأنا جاي لك يمكن أشوفها.

– يا ابني البت دي بتشتغلك.

– وماله الشغل مش عيب.

– دا أنتَ رافع اريال بقى!

– لأ يا خفيف رافع برسيل.

– ابعد عنها يا حازم مريم مش سكتك.

– مش فاهم أنتَ إزاي حكمت عليها من غير ما تتعامل معاها! مريم دي أطيب وأحن بني آدمة في الدنيا، فكرة إنها ما تكونش ليَّ، دي أصلا عمرها ما جت في بالي، تيجي أنتَ تقول لي ابعد عنها!

– أنا حذرتك وأنت حر، قوم بقى علشان نتعشى أصل أنا على لحم بطني من الصبح.

– ومين سمعك أنا واقع من الجوع.

– طب يالا حماتك بتحبك.

***

مريم سليم

مريم.. فتاة في عمر الزهور من عائلة ارستقراطية، والدها القبطان سليم شهاب، انتقلت مع والدها من الإسكندرية إلى الدقهلية عقب وفاة والدتها، ثم التحقت بكلية العلوم جامعة المنصورة قسم الفيزياء لتقع في حب حازم منذ اللحظات الأولى التي جمعتهما.

صوتُ رنينٌ منبعثٌ من هاتف مريم..

– ألو.

– أيوة يا مريوم.

– إيه يا غادة حد يتصل علة حد في وقت زي دا؟

– قومي يا بنتي بطلي كسل عيزاكِ في موضوع مهم جدًا.

– موضوع إيه احكي يا بومة.

– سمعت نكتة جديدة ولازم تبقي أنتِ أول حد أقولها له.

– غادة!

– أيوة؟

– فكريني أعمل لك بلوك لما أصحى من النوم.

– إيه الرخامة دي! طب والله عيزاكِ في موضوع مهم.

– ها انطقي.

– قال لي بحبك أخيرًا قال لي بحبك.

– مين دا يا بت اللي قال لك بحبك؟

– هيكون مين يعني يا مريم هو فيه غيره!

– إيه دا! لأ استني أقوم أتعدل وأفوق لك علشان شكل الموضوع جد.

– جد جدًا والله، أخيرًا يا مريم الأخرس نطق، دانا كنت فكرته نساني ومش هيكلمني تاني، بقاله ٣ أيام مش بيكلمني ومش بيرد على مسدجاتي ولا بيسأل عليَّ، أنا كنت خلاص قربت أفقد الأمل فيه.

– طب وأنتِ رديتِ عليه قلتِ له إيه؟

– أنا يا دوب لسه هرد، قال لي ثواني وهرجع أكلمك.

– أنتِ أصلًا طول عمرك فقر.

– شوف مين بيتكلم! طب بقول لك إيه طيري أنتِ دلوقتي علشان هو رجع يتصل أهو.

– ماشي، خلصي وكلميني، عيزاكِ تشرفيني يا بت، سمعة المنطقة بين إيديكِ.

– ههههه ماشي يلا باي.

***

حسام حسين عابد

حسام هو الأخ الأكبر لحازم، يحظى بمعاملة جيدة من والديه، تختلف تمامًا عن معاملتهم لحازم؛ نظرًا لتفوقه الدراسي ونتائجه الدراسية المرتفعة.

يدرس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية؛ لذلك فهو لا يقضي مع أسرته الكثير من الوقت؛ حيث إنه يعيش في القاهرة في سكن قريب من جامعته.

علاقته بحازم متوترة نوعًا ما؛ نظرًا لمعاملة حازم السيئة له؛ الناتجة عن بعض مشاعر الحقد والضغينة في نفس حازم، التي تسبب فيها تكرار مقارنة الأبوين بينهما؛ مما جعل علاقتهما جامدة.

على الرغم من ذلك فحسام لا ييأس من تكرار المحاولة لكسب ثقة أخيه وإرجاع الدفء والود والمحبة لعلاقتهما من جديد.

يجري حسام مكالمة تليفونية..

– ألو.

– أيوة.

– أنا آسف لو اتأخرت عليكِ، بس ماما كانت بتكلمني بتطمن عليَّ.

– لا ولا يهمك.

– كنا بنقول إيه؟

– مش فاكرة.

– معقول نسيتِ؟

– فكرني طيب.

– كنت بقول يا ستي إني حاسس من نحيتك بحاجة غريبة كدا، مش عارف هو حب ولا إعجاب ولا مرتاح لك.. بس هو في كل الأحوال إحساس حلو، وإني جربت أبعد يومين تلاتة كدا وماتكلمش معاكِ؛ علشان أقدر أقيم إحساسي ناحيتك.. بس بجد في اليومين دول حسيت إن ناقصني حاجات كتير، حسيت إني مش مبسوط من غيرك، ولو اللي حسيته دا معناه إني بحبك فأنا بحبك أوي يا غادة...

قاطعت غادة كلامه بعطسة.

– مالك يا غادة أنتِ كويسة؟

– آه الحمد لله، كنت بعطس بس.

– إيه دا! هو أنتِ كدا بتعطسي؟

– أيوة.

– دا أنا آخر مرة عطست آمي افتكرتني اتكهربت.

– ههههههههه.

– ربنا يخليها يا رب.

– هي مين؟

– الضحكة دي، مش عايزك تحرميني منها أبدًا.

– كسفتني يا حسام.

– يا لهوي على جماله وهو مكسوف يا ناس، طب إيه بقى ما ردتيش عليَّ!

– ما ردتش عليك في إيه؟

– أنتِ متخيلة إن فيه بنات أصغر منك وبقت الجنة تحت أقدامها؟

– إيه دا يعني إيه؟

– غادة أنتِ واكلة رنجة؟

– لأ والله دانا حتى مش بحبها.

– لأ مانا مش قصدي واكلة رنجة بالمعنى الحرفي، أنا أقصد ركزي معايا شوية.

– لا أنا ما بينفعش معايا تلميحات، أنا ساعات ما بفهمش الكلام المباشر حتى والله.

– أيوة مانا لاحظت وشكلي هتعب معاكِ أوي.

– طب بقول لك إيه.

– ها؟

– أنتَ بتحبني فعلًا؟

– لأ.

– نعم!

– بحبك جدًا والله.

– بتحب فيَّ إيه؟

– إنك زنانة وهايفة وتافهة جدًا، وأقل حاجة بتضحكك، دا حتى بتضحكي على الإفيهات التافهة اللي بقولها لك وهي أصلًا ما بتضحكش، وإنك نكدية، وعصبية وبتغيري.. صحيح بتحاولي تبيني عكس كدا بس كل حاجة فضحاكِ، وإنك مزعجة وأنا نفسي تزعجيني في اللي باقي من عمري كله.

– أوعدك.

– توعديني بإيه؟

– مش هبطل أزعجك العمر كله.

– تتجوزيني!

***

غادة رفعت

غادة الأخت التوأم لعماد وصديقة مريم التي تعرفت عليها بعد أن اتخذت هي ووالدها منزلًا مجاورًا لمنزلها، وزادت صداقتهما بعد التحاق غادة بنفس القسم الذي تدرس به.

أنهت غادة مكالمتها التليفونية مع حسام، واحتضنت الهاتف وقبَّلته، ثم وقفت وقفزت على السرير عدة قفزات متتالية من شدة الفرحة.

سمع عماد صوتًا منبعثًا من غرفة غادة فطرق الباب.

عدلت غادة من هيأتها، ثم جاوبت الطارق:

– ادخل.

– أنتِ لسه صاحية يا غادة؟

– آه يا عماد كنت بكلم واحدة صاحبتي وهنام أهو، كنت عاوز حاجة؟

– لأ.. أنا بس كنت داخل أوضتي فسمعت صوت خبط فقلت أطمئن عليكِ.

– أنا كويسة يا عمدة ما تقلقش.

– طب طالما كويسة بقى قومي اعملي لي شاي.

– دانا تعبانة وبموت حتى شوف.

– بقى كدا! طب تعالي أعمل لك فنش أندر تيكر هتفوقي وتبقي زي الفل.

– ههههه خلاص خلاص أنتَ ما حدش يهزر معاك أبدًا، خمس دقايق ويبقى عندك أحلى كوباية شاي.. أنا عندي كام عمدة يعني؟

– أيوة كدا ناس تخاف ما تختشيش.

دخلت غادة المطبخ لتعد الشاي.

غادة: أما اتصل على مريم أحكي لها اللي حصل، على الله ألاقيها لسه صاحية. إيه دا البت دي ويتنج مع مين دلوقتي؟ يلا مش مشكلة أما تبقى تخلص تبقي تكلمني.

أعدت غادة الشاي وقامت تعطيه لأخيها، فوجدت باب الغرفة شبه مفتوح ولاحظت أن عماد يجري مكالمة تليفونية.

رفعت يدها لتدق باب الغرفة، ولكن أوقفها صوت عماد وهو يصيح بالمتصل:

– أنتِ بتستهبلي يا مريم!

غادة: مريم! مريم مين اللي عماد بيكلمها؟

وقفت تنصت لمكالمة عماد.

عماد:

– أنا مش قلت ١٠٠ مرة ما عتيش تكلميه هو الكلام ما بيتسمعش ليه! مش عايز أسمع مبررات، أنا لو عدت أعرف إنك كلمتِ حازم تاني هيبقى لي تصرف تاني معاكِ. أنا مش بقرون علشان أبقى أقعد سامعه بيتكلم عنك ويقول إنه بيحبك قدامي.

هي كلمة ومش هتنيها، رقمك دا يتغير وعلاقتك بحازم دي تنهيها تمامًا مفهوم؟

أغلق عماد الاتصال، فطرقت غادة باب الغرفة.

– ادخلي يا غادة.

– الشاي أهو اتفضل.

– شكرًا يا ديدا، حطيه هنا على الكومودينو.

وضعت الكوب ونظرت إلى عماد.

– فيه حاجة يا غادة؟ عايزة حاجة؟

– هاه، لأ أنا بس سمعتك بتزعق.. كان فيه حاجة!

– لأ.. دا واحد صاحبي غبي بيهزر معايا فنرفزني عليه، ما تشغليش بالك أنتِ يا حنة.

– تمام.. تصبح على خير.

– وأنتِ من أهله، اقفلي الباب وراكِ.

– حاضر.

عادت غادة إلى حجرتها وجلست تحدث نفسها.

غادة: يا نهار! يا رب يكون اللي سمعته دا مش صح وكل اللي في بالي دا غلط.. عماد ومريم! طب إزاي! إزاي مريم تعمل حاجة زي دي؟ وإزاي تخبي عليَّ! وإزاي عماد يعمل كدا في حازم صاحب عمره! دا حازم يبقى أخو حسام.. كدا يا عماد اخص عليك يا أخويا، حتى أنتِ يا مريم! أنتِ يطلع منك كل دا! وأنا اللي مآمناكِ على كل أسراري تطلعي مخبية عني كل دا.. أنا لازم احكي لحسام علشان يتصرف.

اتصلت بحسام.

– ألو.

– أيوة يا حسام.

– إيه لحقتِ تفكري؟

– أفكر في إيه؟

– تفكري في إيه! مش قلت لك عايز أتجوزك وأتتِ قلتِ اديني فرصة أفكر؟

– مش وقته يا حسام مش وقته فيه مصيبة.

– استر يا رب.. مصيبة إيه؟

أخبرت غادة ما سمعته لحسام.

– يا نهار! إزاي دا؟ إزاي عماد يحصل منه كدا! دا حازم بيحبه أوي.. حازم لو عرف هيتعب جدًا.

– وهنتصرف إزاي دلوقتي يا حسام؟

– اقفلي أنتِ دلوقتي ونامي وما تشليش هم وأنا هتصرف.

– حاضر وابقى عرفني عملت إيه.

– تمام يلا تصبحي على خير.

– وأنت من أهل الخير.

اتصل حسام بحازم.

– ألو.

– أيوة يا حازم إزيك؟

– عايش.

– مالك في إيه؟

– يعني مش عارف؟

– عارف إيه؟

– لو متصل علشان تقول لي كلمتين زي أبوك وأمك وفرهم علشان مش طايق حد.

– لا أنا عايزك في موضوع تاني خالص والله.

– موضوع إيه؟

– مريم.

– مالها مريم حصل لها حاجة؟

– لا اهدى ما حصلهاش حاجة.

حكى حسام لحازم عن علاقته بغادة وعمَّا أخبرته به.

– لأ طبعًا أنتَ كداب، عماد مين اللي على علاقة بمريم أنتَ اتجننت! اوعى تجيب سيرتهم تاني على لسانك.

– طيب اهدى وتعالى نتكلم بالعقل، أنا إيه مصلحتي من حاجة زي دي! هستفاد إيه يعني لما أوقع بينكم! فكر فيها كدا هتلاقي إني مش مستفيد حاجة.

– لأ طبعًا مستفيد، عايز تبعدني عن الناس اللي بيحبوني علشان أنتَ بتكرهني وعايز تبقى أحسن مني دايمًا مش كدا؟

– أنا أخوك يا حازم، معقول حد يكره أخوه؟ وعلى العموم فكر في كلامي وحاول تتأكد بطريقتك.

أغلق حازم الخط في وجه حسام.

لم يستطع منع عقله من التفكير فيما قاله، أخذ يربط الأحداث ببعضها، فاتضح له صحة كلامه، ولكنه قرر أن يتأكد قبل أن يتسرع في حكمه على صديق طفولته وحبيبته.

وفي صباح اليوم التالي ذهب حازم إلى منزل عماد الذي يبعد عن منزله مسافة سير عشر دقائق.

وصل إلى المنزل ودق جرس الباب ففتحت له غادة.

– حازم! ات... اتفضل.

– فين عماد؟

– جوا في أوضته نايم استنى هصحيهولك.

– لأ ما تتعبيش نفسك هدخل أصحيه أنا.

بدا على غادة التوتر، وعلمت حينها أن حسام أخبره بكل شيء.

دخل الغرفة مدعيًا أنه سيوقظ عماد.

التقط حازم هاتف عماد وكتب رقم هاتف مريم، فظهر الرقم محفوظ باسم: حبيبتي.

أمسك الهاتف بقوة كاد يكسره، ولكنه أخذ نفسًا عميقًا وحاول استعادة ثباته، ثم فتح تطبيق: الواتس آب؛ فوجد محادثة مريم في أول القائمة، فتح المحادثة وأخذ يقرأها.

نفس الكلمات، نفس عبارات الغزل، نفس كل شيء.

قرأ المحادثة، ولم يوقفه إلا دموعه التي انهمرت منه لا إراديًا فملأت شاشة الهاتف.

أغلق الهاتف ووضعه بجانب عماد كما كان، وخرج من الغرفة مسرعًا؛ فاصطدم بغادة وتركها ونزل بسرعة، لم ينتبه حتى لندائها عليه.

***

خرج حازم لا وجهة لديه، لا يعرف إلى أين يذهب، حتى السبيل الذي اعتاد أن يقصده حين تضيق الدنيا به ظنًا منه أنه الملاذ الوحيد للراحة كان أكثر الطرق إيذاءً له.

قرر أن يذهب ليجلس أمام النيل، كمحاولة لتهدئة روحه الثائرة.

ألقى بقلبه عرض الحائط وبكى بكاءً مريرًا ليس بهينٍ أن يبكي الرجل.

استطاع صوت المياه ونسمات الهواء التي أخذت تداعب وجنتيه حتى جف الدمع عليهما أن تهدئ من روعه.

أخرج هاتفه وفتح تطبيق المذكرات وشرع يكتب:

سيأتيك الخذلان من الجهة التي عصيت الله لأجلها.

تحمل تلك العبارة في جوفها كل معاني الألم والخيبة والخسارة.

لم نكن يومًا بهذا السوء، لم نتخيل كم المعاناة التي تسببتم لنا فيها، ما زلت أتذكر كلماتك ووعدك لي بألا تتركيني.. كل ذكرى لي معك

تحرق قلبي بنارٍ هادئة تهز كياني كالصاعقة. لم أتخيل يومًا أن يحدث هذا بيننا، وكيف يكون أحن الناس عليَّ هو قاتلي الآن! وكيف لي أن أصدق وأستسلم لفكرة أنك لست لي، لقد دهست الفؤاد كأنه حشرة بلا قيمة. كنت حين أشتاقك أختلق الأحاديث لأحادثك، لأروى جفاف قلبي البور. إنني سمعت فتألمت وتأذيت، كيف لي بأن أقتنع أو أشك حتى لو بقدر صغير بأن الفتاة التي أحببتها، الفتاة الوحيدة التي اخترتها بمحض إرادتي ولم تفرض عليّ كما فرضت عليّ حياتي بأسرها هي نفسها من جرّدتني وآذتني وتسببت في نزف دموعي؟! كيف لي بعد كل شيء قدمته أن يأتني الخذلان منك أنت؟! شعور الفقد من أبشع المشاعر ويليه شعور الخذلان، ولكن كيف لي ألا أشعر بهما وأنت تركتني في لوعة فراق، فما عدت أشتهي الحديث مع أحد، وما عاد يهمني وجود أو غياب أحد. الضحكات التي أصدرها مرسومة لتخفي خلفها نحيبًا وآلمًا، ولكن كيف لي بهذا وعيناي تخذلني هي الأخرى وينساب الدمع حتى يحرق جفني ويترك الأثر على وجنتي. مر على فراقك لي تسع سنين، لا أبالغ حين أقول تسعا؛ فالدقيقة في فراقك بسنة وألف سنة. لم أتمنَ قط أن نصل إلى تلك المرحلة، إنه من الصعب جدًا أن أستخدم صيغة الماضي عندما أتحدث عنك، لا أريد أن أقول: كنا؛ فأنا ما زلت أريدك، ما زلت أتمناك وأطلبك من الله. رغم هذا الضعف وقلة الحيلة وفقدان الأمل ما زلت أنتظرك. أعلم أنك لن تأتي، كيف أخبرك أنني مثقلٌ بالمتاعب دونك، لا أرى الغد دونك، إنني أكتب مع علمي إنك لن تقرئين، إنني أخاطب هذا السيل من الدموع الذي يصب من عيني كلما تذكرتك، والجدير بالذكر أنني لا ولن أنساك، ولن أحيد بفكري في شيء غيرك؛ فكيف لي أن أكفكف كل تلك الدموع! إن شريان المشاعر ينزف، كاد النزف يبليني، إن كنتِ أخطأتِ فقد غفرت فمن منا لا يخطأ! ومن نحن حتى لا نسامح؟ وإن كان خطأكِ لا يغفر فيجب أن يكون الجزاء

من جنس العمل، هذا العقاب أشد عليّ من الموت لو كنتِ تدرين، لا أعاقبكِ بابتعادي عنكِ بل أعاقب نفسي. لقد اتُّهِمت بالضعف في حبي لك، وأبليت نخوتي ورجولتي وأنا أنتظرك. إن كل شيء بداخلي يبكي، الأمر ليس مقتصرًا على عيني فقط، اعتصر من الداخل فتطفو كدمات الألم على وجهي، وكأن كل شيء فيّ يعاقبني على غيابك، ما عدت أشعر بجسدي، فقدت حواسي قدرتها، أشعر ببرودة في أطرافي كتلك البرودة في قلبي، لم يعد لي أحد، ومن كان لي من قبل ليكن لي الآن، لم يكن لي رفيق درب غيرك، لم يشاركني أحد أحزاني الكثيرة وفرحي القليل غيرك، وما يؤلمني إلا هوى الذكريات التي فعلت ما فعلته بعواطفي وجوارحي. لا أريد الاستناد على كتف آخر غيرك، أصبحت أدعو الله بأن يكفيني شر الاستناد على كتف يستثقلني.

كسرة النفس؛ خاصة من شخص قريب، شعور اللا قيمة سيئ للغاية، إلى أيِّ مدى يرى العالم قبحنا! هل نحن حقًا بهذا السوء أم إنهم هم السيئون؟ العالم أصبح يخيفني بشدة. أجلس هنا منذ البارحة أراقب حركة الأمواج، بكاء محتضن ظلمات الليل التي كاد الفجر يبليها عدا العتمة التي تخيّم على عقلي، ممتزجة بصوت تلاوات القرآن بالمسجد القريب من هنا، ضوضاء وفوضى عارمة تجوب ثنايا دماغي، ويزداد جو الاكتئاب الذي أعيشه حاليًا بالهاند فري المعلقة في أذني التي يفوح منها صخب أغنيتي الحزينة والمفضلة: عروسة لعبة ليحى علاء. فكلما حاولت السيطرة على الأنين والنحيب الصادر نتيجة الجروح الدامية في قلبي انسابت دموعي رغما عني، ومع قوله: شرايين مشاعري بتتقطع راح ينزفوا؛ أشعر وكأن النبض بداخلي يتلاشى والدماء تتجلط في عروقي، أشعر وكأن عقلي أخذني في جولة حيث اللاشيء.. اللا إحساس. لا أدرك ما أنا فيه حقًا، اضطرابات جسدية ودقات قلب متفاوتة.

اليوم خدش آخر في جدار القلب يترك أثرًا داميًا في روحي، يوم كمثيله من أيامي الضائعة، لا شيء جديد يذكر سوى خيبة أمل تضعف روحي تدريجيًّا!

***

أنهى كتابته لتلك الخواطر وهبَّ واقفًا، إذ به يلقي بنفسه في الماء، فكر في أن الماء قادرٌ على إزالة كل هذا الوجع للمترسب علي جسده.

استسلم حازم للتيار الذي أخذ يسحبه تدريجيًّا، وظلَّ جسده عائمًا تحمله المياه بعيدًا عن البر.

شعر أن الماء كاد يغطي رأسه وما عادت قدماه تلمسان الأرض، حاول أن يستعيد توازنه ليسبح عائدًا للبر ولكنه لم يستطع.

أخذت الأمواج تجره للداخل، أحس أن جسده ثقيل، لم يعد قادرًا على السباحة، لم يعد قادرًا على تحريك يديه، أهلكته قوة المياه، لم يستسلم وحاول أن يستعيد قواه.

بدأ بتحريك كل جزء في جسده، وظل يصرخ وينادي في محاولة بائسة منه لأن يجد من يغيثه، ازداد الأمر سوءًا حين رأى دوامة على مقربة منه، حاول الابتعاد وظل يحاول ويحاول يدعو الله أن ينجيه، كان يصرخ ويدعو الله حتى اقترب من الدوامة وبدأت المياه تسحبه وتجسدت له الدوامة وكأنها ملك الموت يجره من قدمه حتى انتهى به الأمر وابتلعته تلك الدوامة المائية.

الفصل الثاني | (زُلفَة)

عربة الإسعاف تطلق صافرتَها ليتمَّ إخلاء الطريق، في محاولةٍ للإسراع قدر الممكن، للوصول إلى تلك الجثة التي تم انتشالها من الماء للتو.

قوات الأمن تسدّ الطريق، أناسٌ هنا وهناك، فوضى عارمة وضوضاء تخيِّم على المكان.

ما زالت تلك السيدة ملقاة على الأرض وتكسوها أوراقُ الجرائد في انتظار سيارة الإسعاف.

بجانبها تلك الصغيرة، ممسكة بيدها لا تحرك ساكنًا، جلَّ ما تفعله هو ترديد تلك العبارة: قومي بقى يا ماما أنا خايفة.

وصلت سيارة الإسعاف وحاول أحد ضباط قوات الأمن فصل يدا الطفلة وأمها بلطفٍ، ولكنه لم يستطع فلم يجد أمامه حلًّا سوى استخدام القوة مع هذه الصغيرة العنيدة وإرغامها على ترك يدها.

لم يستطع أحدٌ تفسير ما تقوله الطفلة، ولم تستطع دموعها الممزوجة بالنحيب والصراخ أن تليّنَ قلوبهم فيتركون لها موطنها.. نعم موطنها!

هذه الصغيرة لم تفهم بعد أنها بمجرد خروج الروح من جسد أمها فإنها أصبحت مشردة بلا وطن.

وكيف لتلك الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة أن تحارب تلك الأسلحة والذخائر ببكائها وصراخها.

أرغم الضابط الطفلة أن تركبَ سيارة الشرطة، ولم يردعه بكائها وتوسلها بأن يعيد لها أمها وأخذها لمركز الشرطة لحين يتم التعرف عليها وعلى الجثة.

***

في مركز الشرطة يقوم أحد ضباط المباحث التونسية والمسؤول عن التحقيق في الحادث بفحص الأوراق التي وجدت في سيارة الجثة بعد الحادث.

استطاع أن يتوصل إلى معلوماتها الشخصية، وقام بإجراء مكالمة تليفونية لزوجها والد الطفلة؛ ليأتي ويتعرف عليهما ويتم استجوابه.

***

في مكتبٍ واسعٍ تجلس مجموعةٌ من الموظفين، يناقشون خطة عمل الشركة مع رؤساء مجلس الإدارة.

قطع تلك المناقشات رنين هاتف أحد الموظفين، نظر المدير بحدة إلى هذا الموظف، ثم قال له بتهكم:

– أرجو من السادة الموظفين إغلاق هواتفهم أثناء الاجتماع، هل سمعت يا سيد طارق؟

– أنا آسف جدًا يا فندم.

قالها طارق، ثم قام بإغلاق الهاتف واستكمل المناقشة.

وفي نهاية الاجتماع شكر المدير الموظفين، وطلب منهم أن ينصرفوا إلى مكاتبهم.

بمجرد خروج طارق من غرفة الاجتماعات قام بالاتصال على هذا الرقم الذي اتصل به مرارًا أثناء الاجتماع.

– ألو.

– ألو.. أنت ما بتردش عليَّ ليه؟ أنا بكلمك بقالي كتير!

– اهدي اهدي يا مريم.. أنتِ بتعيطي ليه؟

– زُلفة...

– مالها زُلفة جرى لها إيه؟

– كنت عندها في المدرسة و...

– و إيه! إيه اللي حصل؟

– هربت من المدرسة وخرجت بالعربية أدور عليها، وشوفتها من شوية بتجري على طرف، طريق حاولت ألحقها بس تاهت مني في زحمة العربيات، وجيت وقفت في إشارة عطلتني زيادة وأنا مش عارفة أعمل إيه دلوقتي.

– اهدي اهدي، طب أنتِ فين علشان آجي لك؟ ألو، ألو.

انقطعت المكالمة، فأخذ يعيد الاتصال ويحاول عدة مرات ولكن بلا جدوي، فكر أن يخرج هو الآخر ليبحثَ عن زوجته وابنته التائهتين في شوارع مدينة أريانة بتونس.

هذا الرجل الوسيم الذي خالط الشيب رأسه رغم صغر سنه، فهو لم يكمل عامه الخامس والثلاثين بعد.

ذو بنية قوية، ووجه بارز الملامح، ذو بشرة تختلف عن سكان المدينة التي يعيش فيها هو وزوجته وابنته، فمن يراه يستطيع بسهولة أن يعرف أنه مصري بملامحه التي ارتوت من ماء النيل، بالإضافة إلى لهجته المصرية المميزة.

سأل نفسه:

إلى أين أنا ذاهب؟ في أي مكان أبحث عليهما في تلك الشوارع الواسعة المزدحمة!

يا ربي ماذا أفعل؟ ساعدني يا رب أرجوك.

مضت ساعتان وهو لا يزال يجوب الشوارع، يخرج من شارع ثم يتجه إلى آخر لا وجهة لديه.

لا يزال يبحث، ولا يزال يتصل بزوجته على أمل أن تجيبه وتريح قلبه من هذا العناء.

قاطع شرود أفكاره صوتَ رنين هاتفه فأجاب مسرعًا:

– أيوة يا مريم أنتِ فين؟

قطع صوت أنفاسه المتسارعة صوتٌ آخر غير زوجته.

جاوبه ضابط من قوات الأمن، وأخبره أنه تمَّ العثور على جثة لسيدة ثلاثينية العمر، وعثر في أغراضها على جواز سفر وبطاقة شخصية، وبفحص سجل المكالمات لديها تبيَّن أن رقم طارق هو آخر رقم قامت تلك السيدة بالاتصال به، ثم طلب منه القدوم إلى قسم الشرطة؛ للتعرف على الجثة وعمل الإجراءات اللازمة.

لم يستطع طارق تفسير ما قاله هذا الضابط.

ظلت الكلمات تعاد على مسامعه ولا يستطيع تصديق كلمة مما سمع.

:كيف لهذا أن يحدث؟ جثة؟! أيَّة جثة؟! زوجتي أنا؟ الآن أصبحت جثة؟!

ما أبشعها كلمة وما أصعبها! أي عقل يستطيع تفسير هذا الهراء؟ لا لم تمت. سأذهب إلى قسم الشرطة وأؤكد لهم أن زوجتي على قيد الحياة، لقد اتصلت بي منذ وقت قصير؛ كيف أصبحت جثة سحقًا! كيف يجرؤ هذا الضابط اللعين قول تلك الكلمات.

حدث نفسه وردد تلك العبارات إلى أن قطع تفكيره صوت أبواق السيارات التي خلفه، استعاد وعيه وانطلق وكأنه يسابق الريح ليصل إلى قسم الشرطة.

***

في القسم..

تجلس الطفلة الصغيرة على كرسيٍّ بجانب مكتب الضابط، دخل طارق فهبَّت الطفلة واقفة وكأن روحها ردت إليها.

– بابا، بابا.. شُفت يا بابا عملوا إيه؟ خدوا ماما ومش عايزين يرجعوها لي.

– اهدي يا زلفة يا حبيبتي أنا جيت، وهنروح البيت كلنا وماما هتيجي معانا ما تقلقيش.

طلب الضابط من والد الطفلة أوراقَ إثبات شخصيته للتحقق من هويته.

أعطاه طارق جواز سفره للتحقق من بياناته، ومن ثم طلب منه أن يرافقه.

أمسكت زلفة بيد أبيها، وطلبت منه أن يصحبها معه.

– خدني معاك يا بابا، ما تسيبنيش هنا لوحدي.

– مش هسيبك يا حبيبتي، أنا هروح أجيب ماما وجاي.

– لأ هاجي معاك، خدني معاك يا بابا أنا خايفة.

حاول تهدئتها ووعدها أن يعود برفقة والدتها بعد قليلٍ، ولكن بشرط أن تجلس هادئة ولا تسبب أيَّ إزعاج حتى يعود.

وافقته زلفة وجلست تنتظر عودة والديها.

اتجه طارق برفقة الضابط، وعددٍ من قوات الأمن إلى المستشفى بالتحديد إلى المشرحة للتعرف على الجثة التي عثر عليها.

الطريق إلى المستشفى يبعد خمس دقائق، ولكن طارق شعر أن الطريق طويلًا مسافة خمسة أعوام.

وصل طارق إلى المستشفى، أخذ يجرُّ قدميه ليتمكن من مواصلة السير.

وجهه يتصبب عرقًا رغم برودة الطقس، بالكاد يستطيع بلع ريقه.

وقف أمام باب الغرفة «المشرحة»، أخذ يتوسل إلى كلِّ ذرة به أن تتماسك، ظلَّ يطمئن نفسه قائلاً: «لا بأس، لن يخذلني الله، حاشاه أن يردني مكسورَ الخاطر، لا بأس إن الله معي فكيف أهلكُ وهو ربي؟ وكيف أفتقر وهو رجائي»!

ثم دخل الغرفة..

غرفةٌ واسعةٌ معتمةٌ، رائحتُها كريهةٌ، طقسُها باردٌ، ظلَّ يقترب من هذا الجسد المغطى بملاءة بيضاء لا يظهر منه قدر أصبع حتى.

كلما اقترب كلما ازداد صوت قرع طبول قلبه، كُشِفَ الغطاء عن وجهها؛ ملاك نائم.. كيف لها أن تكون بكل هذا الجمال رغم أنها لا روح بها! مجرد جماد! كم هي فاتنة ما أحلاها!

بخطوات ثابتة ظل يقترب منها، اقترب أكثر وكشف الغطاء عن جسدها، أمسك يدها وانحنى ليقبلها وقام وقبل رأسها قبلة حانية.

كان يحادثها وهو لا يزال ممسكًا بيدها.

– حبيبتي! أنا جيت من الشغل، على فكرة نسيت أقول لك إنك لما اتصلتِ عليَّ أنا كنت في الشغل، ومديري بص لي حتة بصة! خضني يخرب بيته، أنا آسف لو اتأخرت عليكِ. يلا بينا بقى قومي علشان زلفة قلقانة عليكِ.

ظل يحادثها ولم يمل من تكرار أسئلته لها وعدم ردها عليها.

طلب منه الضابط أن يرافقه ليذهبا ثانية إلى قسم الشرطة حتى يتم اتخاذ الإجراءات اللازمة للدفن.

صرخ طارق في وجه الضابط وبكى بكاءً هستيريًّا.

– أنا مش ماشي من هنا غير ومراتي خارجة معايا على رجلها. أنا مش هسيبها هنا، وما تقولش ماتت دي ما تفوّلش عليها.

خر على ركبتيه وأمسك يدها وعاد يحادثها مرة أخرى.

– قومي بقى ما توجعيش قلبي أكتر من كدا. أنتِ هتسيبيني لوحدي؟ يعني مش عايزاني؟ هو أنا للدرجة دي وحش علشان تتخلى عني كدا، أنا ماقدرش أعيش من غيرك، ما تسيبنيش. أنا لما حبيتك حبيت روحي بيكِ يا مريم، هتسيبيني وتاخدي روحي معاكِ! ما تسيبنيش أنا من غيرك ولا حاجة. أنا عارف إني وحش وماستاهلش حد زيك بس أنا بيكِ أحسن.. أنت سندي وضهري ومن غيرك هتكسر! أنا ما ليش مأوى في الدنيا غيرك، أنتِ ساكنة فيا أكتر مني.. أنتِ دواء لوجعي، أنتِ اللي فيكِ شفايا. مش هتسيبني لأ! أنتِ طول مانتِ معايا ببقى مطمئن. مش هتسيبني ومش هسمح لك بكدا وقومي معايا يلا بطلي دلع...

سحب يدها منتظرًا إياها أن تقوم وتذهب معه، حاول إقناعها بشتى الطرق أن تقفَ وتخرج معه لتطمئن زلفة عليها.

– طب مش أنتِ كنت عايزة تخرجي وتتفسحي وتروحي على البحر؟ أنا هاخد إجازة شهر بحاله وأفسحك فيه. كل اللي تطلبيه هيكون عندك وهفضل معاكِ لحد ما تزهقي مني، ها إيه رأيك؟ عايزة إيه طيب وأنا أعملهولك.

أثناء حديثه معها أشار ضابط الشرطة إلى جنوده بأن يخرجوه من الغرفة.

ظلَّ يصرخ وينادي عليها، ثار كالبركان النشط.

– واخديني على فين سيبوني.. سيبني ما حدش يمسكني، أنتم موديني فين؟ أنا عايز أفضل مع مراتي، أنتم واخديني ورايحين فين؟ سيبوني سيبوني.

أرغمه الجنود على الخروج من الغرفة للعودة لقسم الشرطة حتى يستكملوا التحقيقات.

عاد طارق لابنته، فوجدها تجلس حزينة منبوذة.

بمجرد رؤية زلفة لأبيها انطلقت صوبه واحتضنت قدمه وأخذت تحدثه.

– ماما ما جاتش معاك ليه يا بابا؟

– ماما روحت البيت يا حبيبتي علشان هي تعبانة شوية ما قدرتش تيجي معايا.

– طب يلا بقى نروح لها، أنا مش عايزة أفضل هنا.

– حاضر يا حبيبتي، هنمشي، ما تخافيش يا زلفة أنا معاكِ.

اطمأنت زلفة لوجود والدها، وظلت ممسكة بيده في انتظار خروجهما من هذا المكان الذي لم تحبه قط.

استكمل طارق إجراءات الدفن وهو في ذهول وعلامات الصدمة والحسرة تخيم على ملامحه.

قرر أن يتم دفن زوجته بتونس بدلًا من انتظار إجراءات أخرى للسفر ونقل الجثمان لمصر.

ثم فكر في أن يأخذ زلفة ويتركها عند صديق له؛ حتى تتم عملية الدفن لأنه لاحظ الإجهاد والإرهاق يسيطر عليها فقال لها:

– زلفة يا حبيبتي أنتِ جعانة صح؟

– لأ مش جعانة أنا عايزة أروح البيت.

– طب إيه رأيك تروحي عند إياد ابن عمو كمال، مش أنتم صحاب وأنتِ بتحبي تلعبوا سوا.

– طب وماما هتيجي معانا؟!

– لأ يا حبيبتي، أنا قلت لك ماما تعبانة وأنا هوديكِ عند إياد وهرجع أجيب ماما من البيت أوديها للدكتور، ولا أنتِ عايزة تيجي معانا عند االدكتور ويخلع لك ضرسك؟

– لأ خلاص هقعد مع إياد.

– شاطرة يا حبيبتي.

أجرى طارق مكالمة تليفونية لصديقه المصري كمال.

– ألو.. السلام عليكم.

– عليكم السلام.. إيه فينك مشيت من الشغل بدري ليه؟ سألت عليك ما لاقيتكش.

– مراتي ماتت يا كمال.

– نعم!

استكمل مكالمته وأخذ يقص لصديقه ما حدث، وبالكاد أنهى المكالمة، وما لبث حتى وجد صديقه قد أتى ليكون بجانبه في هذا الموقف الأليم.

طلب طارق منه أن يصحب زلفة إلى منزله، ثم يعود إليه.

اصطحبها كمال إلى المنزل، ولم يرد أن يخبر زوجته أن رفيقتها الوحيدة في هذه الغربة قد صاحبتها المنية.

واختلق بعض الحجج لسبب قدوم زلفة معه إلى المنزل دون والديها، ثم خرج وعاد لطارق.

سارت إجراءات الدفن ببطء ممل للغاية حتى تمت.

أخذ طارق يفكر كيف سيرد على تساؤلات زلفة المستمرة حيال عدم وجود والدتها، لم يجد حلًّا سوى بعودتهما إلى مصر.

فلم يعد له أحد هنا، لقد أنفق الكثير من عمره في هذا البلد مع زوجته.

اليوم فقط أحسَّ أنه وحيدٌ، اليوم ولأول مرة يشعر بوحشة الغربة.

طلب كمال منه أن يصحبه إلى بيته؛ لأنه يخشى أن يتركه وحده في هذه الحالة، ولكنه رفض وأصر أن يذهب إلى منزله لينام على سريره الذي طالما كان يجمعه بزوجته.

لم يرد كمال أن يضغط عليه واقترح أن تظل زلفة عنده حتى تنتهي أوراق السفر وإجراءات العودة لمصر، فما كان بطارق إلا أن يوافق.

وصل طارق منزله.. كم كان هذا اليوم مهلكًا!

هدوء تام في أرجاء المنزل، دخل إلى غرفة نومه وألقى بنفسه على فراشه.

أغمض عينيه وأخذ يستجمع ملامح زوجته الجميلة من مخيلته ويتذكر بعض الذكريات التي مروا بها.

تذكَّر أول مرة التقى بها، كم كانت جميلة! لا يزال يتذكر أول نظرة من عينيها المتسعتين ذات اللون الأخضر الذي يميل للزرقة، وشعرها الطويل المسدل على خصرها.

يتذكر أول لقاء وأول كلمة وأول كل شيء، كادت حرارة الشوق تفتك به.

قام من نومته واعتدل، ثم نظر بجانبه فوجد صورتهما على المنضدة جانب السرير فأخذها وبدأ يحدثها:

«بعدتِ! سبتيني متغرب لوحدي! بس عارفة رغم بعدك أنتِ ساكنة جنب الوريد.. وعارفة برده أكتر حاجة تعباني إيه! إني ما لحقتش أرتوي منك ما لحقتش أشبع. دنا حتى ما ودعتكيش.. طب هقول لك إزاي أن فراقك صعب وأنتِ أصلًا مش مفرقاني.

وإزاي تفارقي وأنتِ سكناني، طب هقول لقلبي إيه لما توحشيه»!

ترك طارق الصورة وأخذ يتجول في الغرفة، ويتأمل كل زاوية ويتذكر المواقف التي حدثت بها.

إلى أن وقع نظره على مذكرات مريم فالتقطها بلهفة، وأخذ يقلب صفحاتها ويسبح بين سطورها بشغف، إلى أن وصل إلى صفحة تتحدث فيها مريم عنه فتقول:

غريب.. مش مفهوم، صعب ومعقد ومكلكع، شخصية غامضة، كل يوم بتعلم منه حاجات جديدة.. بحاول على قد ما أقدر أقرأ دماغه، ذكي ولماح ولبق، ، لما بيكدب أوقات ببقى عارفة إنه بيكدب وبيشتغلني وبعمل مصدقة جدًا، وأوقات ما بيعرفش يكدب عليَّ وبيتلخبط ووشه يحمر وبيبقة عامل زي البيبي كدا، عقابه ليَّ دايمًا بيكون غياب. بدأت أفهم أسلوبه، لو قال ابعدي بيبقى قصده يقول لي قولي لي ماقدرش.

غيرته صعبة أوي بس بحبها.. قررت أديله شوية حرية وأسيبه يكلم زميلاته في الشغل من غير نكد وخناق، رغم إني خايفة جدًا يروح مني بس أهي تجربة.

معظم الوقت بيختبرني بحاجات تضايق علشان يشوف رد فعلي.

إيه دا! هو وحشني أوي كدا ليه؟! هو ليه ما فيش لمة بتكمل من غيره!

مجنون.. لو طقت في دماغه حاجة مش بيرجع غير لما يعملها.

آخر واحد بيهمه كلام الناس مع إنه بيتأثر بيه وبيزعل منه، يبان فرفوش وما بيبطلش ضحك، بس أكتر واحد زعله وحش.

لو فتحتوا بطنه هتلاقوا فيها كريبات زنجر، بيحب عصير المانجا ومدمن بيبسي، أكتر واحد بيسمع مشاكل الناس وبيحلها، وما حدش بيعرف عن مشاكله حاجة؛ لأنه ما بيحبش يشارك تفاصيله مع حد.

بيبي فيس أوي في ضحكته وهزاره.. قلبه طيب أوي رغم إنه عصبي جدًا! بيحب المزيكا جدًا ومجنون عمرو دياب. سواقته زي الزفت مفروض يسموه حوادث، بيبقى زي الطفل لما يجي يحكي لي يومه ويقول لي حصل كذا كذا.

ياخد أوسكار أحسن واحد يقفل السكة في وشي وأنا بكلمه، عصبي وقفوش وبيغير.

لما أكون بتخانق معاه يقوم جاي في وسط الخناقة وساكع واحدة وحشتيني بنسى إني زعلانة منه أصلًا.

لو الموضوع كبير أوى بقى ووصلت لأني أعيط بيقوم قايل لي: «طب أقول لك نكتة بايخة»؟

وبيفضل يضحكني وأنا تافهة وبضحك وهو بيستغل التفاهة دي علشان نتصالح.. بيعرف إزاي يراضيني.

لما بنكون ماشيين سوا بحسنا في ماراثون جري علشان خطوته سريعة وبمشي ألحلح وراه ومرة كنت زعلته فضل ممشيني وراه أقول له: «أنا جعانة أكلني»، وهو يقول لي: «لا».

لما بغيب فترة عنه وبرجع أتكلم بيقول لي: «كنتِ فين كل دا يا زفتة؟

وهي دي قمة الرومانسية بالنسباله.. أنا بحبه أوي».

قرأ كلماتها وسيل الدمع ينزف على وجنتيه حتى كاد الدمع يجف من عينيه.

أمسك القلم الخاص بمريم وأخذ يكتب في مذكراتها:

«لقد تيقنت أني بدونك أعاني النقص والوحدة.. لم أعد أكترث بالازدحام المصطنع؛ فبدونك كلماتي مشتتة وخواطري مبعثرة، لم يكن لي أحد سواك. كنت بيتي ووطني، يومي ينقصك وبشدة أفتقد حياتي، لا تسمي تلك الحياة التي أعيشها حياة بدونك، إنها خالية من الروح، لست المفضل لدي أحد ولا أود أن أكون إلا لك.

الآن.. بعد أن ابتعدت أنت، ابتعدت عني كل معاني الحياة، فما عدت أستمتع بحديث الآخرين ولا أستمتع بالانعزال. كنت أحب أن تشتاق إليَّ فأغيب لأرى هذا الشوق مترجمًا لكلمات اعتدتها منك. الآن لن ينتبه أحد لغيابي، إن غبت يومًا، اثنين.. عشرة؛ لن يلاحظ أحد. وحدك أنتَ من كانت تملأ ثغراتي، وحدك من تكملني، إنني تائه بدونك، أقسم أنني أحببتك قرابة عُمرين على عمري أو أكثر، وأقسم أنني اشتقت إليك كثيرًا».

***

بعد مرور عدة أيام..

زلفة ذهبت إلى مدرستها مع إياد، وزوجة كمال أهلكته من تكرار الأسئلة: «أين طارق ومريم؟ ولماذا زلفة هنا»؟

لم يجد كمال مهربًا من تلك الأسئلة إلا بإجابة تخلّصه من هذه الطفيلة المزعجة التي تستوطن أذنيه، فقال لها: «إن طارق ومريم سافرا في رحلة سويًا لقضاء بعض الوقت قبل أن يعودا إلى مصر؛ لهذا السبب زلفة هنا».

أنهى طارق إجراءات السفر وأعدَّ الحقائب وكلَّ ما يلزمه، ثم ذهب ليحضر زلفة من المدرسة.

في المطار..

كان العناقُ حارًا بين طارق وصديقه كمال..

– هتوحشنا يا غالي.

– والله أنتَ اللي هتوحشني أوي يا كمال.

– ما تقلقش كلها كام شهر وجاي لك مصر.

– ما تطولش الغيبة.

– توصل بألف سلامة.

– الله يسلمك يا رب.

– وأنتِ يا ست زلفة ابقي خلينا نسمع صوتك، أنتِ عارفة أنا والواد إياد بنحبك قد إيه!

– بس أنا مش بحبك يا عمو كمال علشان أنتَ دمك تقيل.

طارق:

– عيب كدا يا زلفة اعتذري وقولي لعمو أنا آسفة.

كمال:

– ههه سيبها يا طارق أنا بحب هزارها وصراحتها دي طالعة لأبوها، فعلًا اللي خلف ما ماتش.

ابتسم طارق قائلًا:

– طب ألحق أطير أنا بقى.

– توصلوا بألف سلامة في حفظ الله.

صعد طارق وزلفة إلى الطائرة، وبدأت رحلة العودة إلى الوطن.

***

في مطار الإسكندرية يقف رجل قد بدا عليه الهرم برفقته زوجته التي اشتعل رأسها شيبًا.

أخذت تسأل العجوز زوجها:

– هو طارق قال لك طيارته هتوصل الساعة كام يا سعد؟

– قال هتوصل 9.

– الساعة بقت 9 ونص.

– زمانه جاي يا زينب، أكيد معاه شنط وحاجات معطلاه بس.

وصل طارق وابنته مطار برجِ العرب، وجد والديه في انتظاره وبعد سلامات حارة وعناق طويل:

– تيتاااا.

– حبيبة تيتا، وحشتيني يا بت يا زفلة.

– اسمي زلفة يا تيتا.

– يووه معلش يا ست زلفة، وبعدين حد يسمي ضناه زلفة! مالها نعمة وماجدة وعيشة، والله صاحبك دا ما لوش حق يا طارق بقى دا اسم يتسمى لعيلة.

– خلاص يا أمي حصل خير.

– أنتِ خاسة كدا ليه؟ أبوكِ ما بيأكلكيش يا زوزة يا صغننة أنتِ؟

– لأ يا تيتا باكل.

– فين دا! أنتَ ما بتأكلش بنتك لي يا واد أنت؟

– طب سلمي عليَّ الأول يا ست الكل.

– يا حبيب أمك وروحها، طبعًا هسلِّم عليك بس بعد كدا فكرني أملص لك ودانك على الغيبة الطويلة دي.

يقطعهما صوت سعد والد طارق:

– يلا بلاش لكاعة أجلوا الكلام دا لما نروح البيت.

ابتسم طارق قائلًا:

– والله وحشتني عصبيتك دي يا حاج.

هذه العائلة الصغيرة بروحها المرحة وجوّ الألفة استطاعت أن تخفف عن طارق حزنه بعض الشيء.

وصلت السيارة إلى منزل العائلة وهمَّ الجميع بالدخول إلى المنزل.

شم طارق رائحة طيبة فقال:

– أنا عارف الريحة دي كويس.

أجابه والده:

– طبعًا يا سيدي لازم تكون عارفها، دا محشي الست زينب اللي ما بيتعملش إلا للغالين.

– الله عليكِ يا حاجة زينب، أنا كنت ناوي ماكلش علشان واكل في الطيارة، وبصراحة تعبان وهموت وأنام، بس أنا مش قادر أقاوم الريحة دي بصراحة.

دخل طارق المطبخ وتناول طبقًا وأخذ يملأ الطبق من كل أصناف الطعام فقاطعته والدته قائلة:

– صبرك بس استني هناكل كلنا.

– مش قادر أستنى، إيه العز اللي أنتم فيه دا؟ محشي وبط ولحمة ومكرونة بالبشاميل! إيه كل دا دنا بقالي سنين باكل أكل عيانين برا.

– يا ضنايا! أتاريك خاسس ومش باين عليك من الهموم.. كُل يا حبيبي واتقوت.

***

بعد مرور عدة أيام أتمَّ فيها طارق أوراق التحاق زلفة بمدرسة جديدة.

أخذ طارق سيارة والده ليوصل زلفة إلى مدرستها الجديدة، وفي طريقهما سألت زلفة والدها:

– هي ماما زعلانة مني يا بابا؟

– لأ يا حبيبتي هتزعل منك ليه؟

– علشان مش عايزة تيجي تشوفني، أنا عارفة إن ماما زعلانة مني، وأنت بتكدب عليَّ.

– ينفع حد يقول لبابا كدا! يعني بابا كداب؟ وبعدين يا حبيبتي ماما هتزعل منك ليه؟

– علشان أنا قتلتها.

– إيه! أنتَ جبتِ الكلمة دي منين؟ مين قال لك تقولي كدا؟

– أنا قلت كدا ما حدش قال لي.

بدت علامات التوتر على وجه طارق واتبع حديثه قائلًا:

– ليه بتقولي كدا؟

– علشان يا بابا أنا سمعت ماما والميس أميمة صاحبتها بيتكلموا سوا، وبتقول لماما إن اسمي في شهادة الميلاد مختلف عن الاسم اللي أنتَ بتوقع لي بيه على شهاداتي، وماما قالت للميس إن أنا مش بنتها وأنتم اتبنتوني لما بابا وماما الحقيقين ماتوا لما البرج الناس الوحشين فجروه، وعملتوا كدا علشان بابا كان صاحبك، ولما سافر هو وماما يتفسحوا سابوني عندكم في البيت على ما يرجعوا من السفر، ولما وصلكوا خبر موتهم اتبنتوني وأنا زعلت من ماما وجريت علشان أهرب علشان أنا مش بنتكم، وأنتم مش بتحبوني وعلى طول أنتَ وماما بتكدبوا عليَّ وأنا

عارفة إن ماما مش عند الدكتور أنتَ كداب يا بابا؛ علشان أنا شوفت ماما بتقع بالعربية في بحر كبير زي البحر اللي هناك دا، وفضلت واقفة لحد ما عمو الظابط الوحش زعق للناس علشان يمشوا علشان يطلع عربية ماما من البحر، وكمان سمعت عمو كمال بيقول لطنط مامت إياد إن أنا قاعدة عندهم علشان بابا وماما مسافرين يتفسحوا يعني زي ما ماما قالت للميس. كلكم كدابين يا بابا، وأنا عارفة إن ماما سابتني وراحت عند ربنا علشان هي زعلانة مني.

نظر طارق إليها بحدة، لم يستطع التفوه بحرف وكأنما بلع لسانه.

ظل يحدق بها وهي تقص تفاصيل حادث والدتها، لا يحرك ساكنًا وكأن على رأسه الطير.

قطع هذا الشرود صوت صراخ زلفة:

– حاسب يا بابا حاسب.

قالتها قبل أن تسقط السيارة من على حافة الطريق وتسقط في البحر وتبتلعها المياه وكأن أحدهم ألقى حصوة في بئر؛ فارتطمت بالقاع.

الفصل الثالث | أندلوسيت

بمجرد أن ابتلعته الدوامة المائية فقدَ حازم وعيه بعد أن ارتخى بدنه وثقل جسمه، ضمرت عضلاته وتلاشت قوته من هول ما مرَّ به.

حملته الدوامة وسارت به في جوف البحر حتى وصلت إلى منطقة استكان فيها اضطراب الأمواج، ثم لفظته من باطنها إلى السطح، فطفى جسده واستسلم للتيار الذي أخذ يسير به تحتضنه موجة وتسلمه للأخرى.

انجرف جسده في اتجاه سير الماء وهو لا يزال فاقد الوعي.

حملته الأمواج حتى وصلت إلى شاطئ أحد البلدان فألقته على البر؛ ليشاء القدر أن يكتب لحازم عمرًا جديدًا ويحيا مرة أخرى، حياة من بعد موت.

قضى حازم فترة طويلة في الماء؛ مما جعل جسده يبدو وكأنه تآكل.

مرّت ساعات وهو على حالته، لا يزال ملقيًّا على رمال الشاطئ تداعب الأمواج قدميه.

ومع ولادة فجر جديد، سطعت خيوط الشمس الذهبية على وجهه المرهق فأخذ يفتح عينيه ببطء شديد، بالكاد استطاع تحريك يده ليضعها في وجه الشمس لتفادي أشعتها.

استغرق الأمر وقتًا لا بأس به حتى استطاع أن يقف على قدميه.

أخذ ينظر إلى هيئته وإلى الحال التي هو عليها.

يقف حافيَ القدمين، وثيابه مبللة ملطخة برمال الشاطئ.

ما هذه الحالة التي يُرثى لها!

نظر حازم حوله وبدأ يحدث نفسه:

– إيه دا؟ أنا فين؟ وايه اللي جابني هنا؟ إيه اللي حصل لي! فين الناس؟ إيه المكان دا؟ أنا إيه اللي جابني مارينا؟ هو أنا غرقت في مراسي ولا إيه!

يا ريتني عملت حسابي قبل ما أغرق وكنت جبت مايوه معايا.

آآه يا عضمك يا حازم، لا اجمد كدا يا زوما دانت البحر وسمكاته وقروشه مأثروش فيك.. أنا مالي بقيت كلبوب كدا ليه!

بات يحدث نفسه، لا يزال وحده على الشاطئ، لا يوجد أية إشارة أو دليل يهتدي به أو يستدل منه على مكانه.

ظل ينادي بصوت عالٍ ويردد بعض الكلمات بلغات مختلفة ليساعده أحد.

مضت ساعتان وهو لا يزال يمشي على الشاطئ على أمل أن يلتقي بأحد يرشده إلى طريق يسلكه، ليخرج إلى العمار ويساعده في العودة إلى بيته.

مضى وقت طويل ولم يطرأ أي جديد، شعر حازم بإرهاق شديد بعد أن أنهكه السير حافيَ القدمين لفترة طويلة، وأحس بالجوع والعطش، كانت معدته الفارغة تصدر أصواتًا مسموعة لخلوها من الزاد منذ مدة لا بأس بها.

– يا ربي، أنا خلاص مش قادر، جسمي كله مكسر، جعان أوي وهموت وأشرب.

ما فيش حد هنا يساعدني؟ يا ناس، حد يرد عليَّ، أنا تعبت.

إيه الهِوّ اللي أنا فيه دا، وإيه اللي جاب الصحراء جنب البحر!

طب البحر دا مالح ولا حلو، أنا عطشان أوي.

يعني ولو حتى مايه حلوة معقول أنا كحازم هشرب من البحر؟

لأ مهو أنا لازم أشرب، أنا ريقي بقى ناشف زي الحطب.

بعد تردد، قرر أن يتذوق ماء هذا البحر ربما تكون تلك المياه عذبة فيروي بها عطشه.

انحنى وأخذ حفنة صغيرة من الماء في راحة يده وقربها من فمه لتذوقها، أخرج لسانه ببطء وهو لا يزال غير راضٍ عن تلك الفكرة ولكن لا حيلة لديه.

بلل حازم لسانه بتلك الرشفة الصغير من الماء فاستحالت ملامح وجهه من النفور إلى الرضا التام، وشعر برغبة جامحة في ملأ معدته بالماء من هذه المياه العذبة الجميلة.

الله، إيه المايه الحلوة دي، دي طعمها أحلى بكتير من مايه الفلتر اللي عندنا في البيت.. وإيه الريحة دي؟ أول مرة أشم ريحة حلوة أوي كدا، إزاي المايه دي ريحتها بالجمال دا؟ هي المايه مش مفروض ما لهاش طعم ولا ريحة؟ هو أنا لما غرقت مُت ولا إيه؟

مش يمكن مُت فعلًا وأنا دلوقتي في الجنة ودا نهر من أنهار الجنة!

لأ جنة إيه اللي هدخلها من غير حساب كدا!

طب أنا إزاي ما شميتش الريحة الحلوة دي من ساعة ما فوقت؟ مانا بقالي كتير ماشي على الشط.

المايه عذبة مش مالحة يبقى أكيد دي بحيرة أو نهر معقول دا النيل! طب دي محافظة إيه دي؟ ولو دا النيل إزاي الرمل والصدف دا لشط النيل؟

ولو دا أصلًا مش النيل ودا شط أي بحر من بحور السواحل إزاي المايه عذبة مش مالحة!

أخذ يُحدث نفسه ثانية حتى شعر بالملل من تكرار الأسئلة.

أحس أنه لا فائدة من إهدار وقته في هذا الهراء، والأنفع أن يتابع سيره إلى أن يصل إلى مكان معمور، أو إلى أن يجد أحدًا يساعده.

قام ليتابع مسيرته فوجد أشجارًا عالية وكثيفة تمتد إلى الأفق البعيد.

نظر خلفه إلى المسافة التي مشاها فوجد أيضًا الأشجار تمتد من هذا الجانب إلى أبعد من مرمى البصر.

تعجب وعاد يسأل نفسه من جديد:

«جت منين الأشجار دي؟ أنا بقالي كتير ماشي والأرض كلها رمل، كانت بالظبط صحرا بتطل على البحر.. امتى جه كل الشجر دا؟ أنا شكلي بهلوس، أكيد بهلوس ودا كله سراب.. أكيد الشجر دا مش حقيقي وأنا بيتهيأ لي بس علشان جعان».

أغمض عينيه وفركها جيدًا، ثم نظر من جديد فوجد الأشجار كما هي تمتد على جانبيه يمينًا ويسارًا وكأنها لا نهاية لها.

أيقن أنه لا أمل في متابعة السير، وقرر أن يسلك مسارًا آخر ويتخلل تلك الأشجار؛ عسى أن تكون هي المخرج والسبيل الوحيد للنجاة.

بعد فترة وجيزة قضاها حازم سيرًا بين الأشجار شعر أنه قد سلك الطريق الخطأ.

فإن تلك الأشجار ما هي إلا امتدادًا واسعًا لغابة كبيرة، أدى سيره فيها إلى جروح أدمت قدماه، فكلما تابع السير زاد نزفت قدماه.

فقرر حازم أن يعود إلى الشاطئ واستكمال السير على رمال الشاطئ الناعمة، بدلًا من أن يهدر دمه على أرض تلك الغابة التي لا يعلم حدودها.

عاد مرة أخرى يتابع السير ليعود إلى وجهته الأولى

سار على أثر خطاه ليتمكن من العودة للشاطئ، شعر أن مسافة الطريق من الغابة للشاطئ قد ازدادت، ليست تلك المسافة هي نفس المسافة التي قطعتها منذ قليل.

وصل إلى آخر أثر قد تركته قدماه على الأرض.

(يجب أن يكون المخرج للشاطئ هنا الآن!

إذًا أين ذهب!

بدت علامات التوتر والخوف تزداد على وجه حازم؛ خاصة بعد أن آن للشمس أن تعود أدراجها، ليستحيل الضوء من خيوط الشمس الذهبية الساطعة إلى بريق البدر الفضي الخافت.

عندما شعر حازم بحلول الظلام أخذ يركض في كافة الاتجاهات محاولًا الوصول لأي مخرج قبل قدوم الليل.

أخذ يهرول هنا وهناك، يقف حينًا ليلتقط أنفاسه ويسابق الريح حينًا آخر. تأذت قدماه للغاية، لم يعد قادرًا على متابعة السير.

حاول المضي قدمًا قدر المستطاع، ولكن نزف قدميه جعله يشعره بالدوار.

لقد فقد دمًا كثيرًا، ومعدته لا تزال فارغة، لم يعد قادرًا على رؤية الأشياء حوله.

عيناه قد اغرورقت بالدموع، فلم يعد يجد مجالًا للرؤية، لم يجد حلًا لهذا المأزق.

أخذ يصرخ وينادي على من ينقذه، وكلما شعر بالألم زاد أنين صراخه.

قطع صوت صراخ حازم صوتًا أنثويًّا.

– كفاية صريخ بقى ودانا وجعتنا يا أخ...

تعجب حازم لما سمعه وظن أنه عاد للهلوسة مرة أخرى.

وعاد ينادي على أحد يغيثه؛ قاطعه الصوت مرة أخرى قائلًا:

– لا دا أنتَ شكلك غاوي غلبة وصداع.

تلفت حازم حوله متفقدًا المكان، لا يرى أحدًا، إذن من أين يأتي هذا الصوت؟

حاول أن يبدو متماسًكا ونظر حوله وقال:

– مين بيتكلم؟

أجابه الصوت:

– أنا نومينسا.

– نومينسا! طب أنتِ فين مش شايفك تعالي هنا!

– أنا وراك أهو.

التفت حازم خلفه فلم يجد أحدًا، فقال:

– ورايا فين أنا مش شايف حد!

– بص تحت كدا.

نظر إلى الأسفل فلم يجد شيئًا!

– أنتِ فين؟ أرجوكِ تعالي.

– أنا ماقدرش أتحرك من مكاني أنا تحت أهو بص لي.

نظر حازم مرة أخرى إلى الأسفل فصُعق عندما وجد زهرة صغيرة لها عينان وفم وتلوح له بأوراق ساقها، أخذ يرجع بظهره للخلف وعيناه مثبتتان على الزهرة، لا يصدق ما يرى؛ حتى اصطدم ظهره بشجرة كبيرة.

– مش تحاسب يا ابني في حد يمشي بضهره كدا؟

التفت حازم مسرعًا فوجد الشجرة تحدق به فوقع على الأرض من صدمته.

أخذت الزهرة الصغيرة نومينسا تتحدث إلى حازم تحاول تهدئته، ولكن حازم ظل صامتًا وكأنّ حلقه قد انشق من الصدمة.

– ما تخافش إحنا مش هنأذيك.

قالتها نومينسا فردت الشجرة الكبيرة قائلة:

– بالظبط إحنا كمان نقدر نساعدك.

نظر حازم إليها بدهشة، ثم أردف قائلًا:

– تساعدوني أخرج من هنا!

أجابته الشجرة:

– طبعًا، أنا أكبر شجرة هنا بقالي سنين في الغابة من قبل ما كل الشجر اللي أنتَ شايفه دا يتولد.

– يتولد؟ هي الأشجار بتتولد؟

– طبعًا كل النبات اللي أنتَ شايفه حواليك دا مولود، لو فاضي هعرفك عليهم، بالمناسبة أنا اسمي توسمان وأنت اسمك إيه؟

– اسمي حازم.

– اسمك غريب أوي بس جميل، قل لي بقى إيه اللي جابك هنا؟

– أنا تايه.

– يا خبر! وتُهت إزاي دي الغابة ماتّوهش خالص.

– هو أنا فين وأنتِ إزاي بتتكلمي؟

– أنتَ في غابة اندلوسيت، وأنا بتكلم زي ما أنتَ بتتكلم.

– بس أنا بني آدم.

– وأنا كمان بني آدم.

– طب ما علينا غابة اندلوسيت دي فين تبع دولة إيه؟

– يعني إيه دولة!

– قصدي يعني البلد!

– آه أنتَ شكلك غريب عن هنا.

– أيوة بقول لك تايه.. طبيعي أكون غريب.

– وجيت إزاي هنا؟

– مش وقته جيت إزاي، أرجوكِ قولي لي أنا فين.

– أنتَ في غابة إندلوسيت.

– أيوة يعني غابة إندلو زفت دي فين؟

– في أكواتيرا.

– إيه أكواتيرا دي؟

– أكواتيرا أكبر أرض في جزيرة بيروب.

– إيه بيروب دي كمان؟

قاطعت الزهرة نومينسا حوارهما قائلة:

– في إيه يا أخ؟ إيه كل الأسئلة دي! أنتَ غاوي دوشة ووجع دماغ ولا إيه؟

أجابها حازم:

– أبوس جذورك اسكتي أنتِ دلوقتي خليها تكمل قبل ما الدنيا تضلم.

ردت الشجرة توسمان:

– ما تقلقش الغابة هنا ما بتضلمش.

– يعني إيه ما بتضلمش فيها عمدان نور يعني!

– بغض النظر إني مش عارفة إيه عمدان النور دي، بس لأ الغابة ما بتضلمش علشان أشجار ألماندين بتنورها لحد الفجر.

– أشجار ألماندين؟

قطع حديث حازم مع توسمان صوت ذكوري أجش.

– بتنادي يا حضرت؟

نظر حازم إلى جواره فوجد شجرة عظيمة يبدو عليها الشموخ، للحظة تخيلها حازم رجلًا صلبًا ذا وقار وهيبة.

أجابه حازم:

– أنتَ ألماندين؟

– أنا كبير أشجار الماندين.

– ساعدني أخرج من هنا أرجوك.

– تخرج إزاي وأنت رجلك بتنزف كدا؟ أنت لو كملت مشي وأنت كدا دمك هيتصفي وهتموت قبل ما توصل أكواتيرا.

– ما هو أنا لو فضلت هنا لحد الصبح دمي هيتصفي وهموت برده.

– أنا هساعدك.

– تساعدني إزاي؟

– علشان تكمل طريقك لازم رجليك تخف، أي محاولة للخروج من إندلوسيت وأنت مصاب تبقى بتجازف بروحك.

– طب وهعالج الجرح إزاي؟

– أنتَ في غابة إندلوسيت يا ولد، أي عشبة في الغابة بيخرج منها عصارة وكل عصارة متخصصة في شفاء داء معين.

– طيب عصارة إيه اللي هتشفي جرح رجلي دا!

– لابرادوريت.

– لابرادوريت؟!

– أيوة.

– طب دي أنهي شجرة من الأشجار دي كلها؟

– لابرادوريت زهرة، ومش بتفرز عصارتها غير لما العتمة تعم كل ذرة في الغابة.

– ليه بتتكسف تفرزها في النور!

– أنا مش عايز بلبلة، أنا هأخر إضاءة الغابة دقايق معدودة على ما تفرز العصارة.

– هو أنتَ إزاي بتنور؟

هزت شجرة الماندين أغصانها؛ فظهرت براعم تشبه الثمار نوعًا ما عندما، أمعن حازم النظر إليها وجدها أحجارًا كريمة ملونة؛ فذهل من جمال ما رأى وقال:

– أنتَ بتطرح بدل الفاكهة والخضار ألماظ!

– مش أنا لوحدي، كل أشجار الماندين في الغابة ثمارها ماس.

– على كدا أهل البلد دي بياكلوا دهب؟

– مش زي ما أنت متخيل.

– طيب أنا لو حبيت آكل، هاكل من الألماظ دا عادي، هيتاكل؟!

– لأ، أشجار ألماندين ثمارها مش للأكل. تقدر تأكل من ثمار شجر ألكسندريت.

– يا ريت أنا جعان أوي.

دلت شجرة ألماندين حازم على الأشجار ذات الثمار الصالحة للأكل، فذهب إليها وطلب منها أن تعطيه من ثمارها فوافقت على الفور.

جلس حازم على الأرض وتربَّع في جِلسته، وأخذ يلتهم الثمار بشراهة.

لم يتذوق ثمارًا طيبة ولذيذة بهذا القدر في حياته كلها، ظل يأكل حتى بعد أن امتلأت معدته.

خيّم الظلام على الغابة واختفى بريق القمر فتوقف حازم عن الأكل بمجرد أن رأى نورًا لونه أحمر يسطع من زهور صغيرة جميلة.

همست شجرة ألماندين لحازم وأخبرته أن تلك الزهور هي زهور اللابرادوريت، فأخذ حازم يسير نحوها بخطوات متعرجة يشوبها ألم الجروح التي طغت على قدميه.

قال لها حازم:

– أنتِ لابرادوريت؟

– أيوة أنا.

– أنتِ جميلة أوي.

زاد احمرار الضوء الساطع من الزهرة معبرًا عن خجلها.

تابع حازم حديثه:

– ألماندين قال لي إن عصارتك هتشفي الجروح اللي في رجلي.

– دا صحيح، بس أنتَ مش هتقدر تاخد عصارتي غير لما تقطفني.

– إيه! يعني علشان أخد العصارة أنتِ تموتي!

– أيوة.

– طب بس ليه تضحي بحياتك علشاني؟!

– كل اللي في الغابة هنا هتلاقيهم بيساعدوك وفي خدمتك، ما سألتش نفسك ليه الكسندريت إدالك من ثماره؟ وليه ألماندين أخّر سطوعه علشان أنا أسطع وأدي لك عصارتي؟ وليه أصلا ثمار ألماندين تسطع لحد الفجر وتنور الغابة كلها؟

– أنا بسأل نفسي من ساعة ما دخلت الغابة مليون سؤال مش قادر ألاقي لهم إجابة، حاسس إني اتجننت، مش قادر أستوعب كل اللي بيحصل.

– إحنا مهيأين لخدمة إيه بشري يدخل الغابة، وإحنا بقالنا كتير ما شوفناش بشري في الغابة، فوجودك بالنسبة لنا احتفال.

قاطع ألماندين حديثهما قائلًا:

– أنتَ لازم تاخد العصارة دلوقتي علشان دا وقت سطوعي.

قطف حازم الزهرة الجميلة وكله آسًى على ذلك، وأخذ عصارتها وطبقها على قدميه فطابت جروحه على الفور وشفيت قدماه تمامًا وكأن شيئًا لم يكن بها، ثم سطعت ثمار ألماندين فاستحال ظلام الغابة الحالك إلى ضوء أشبه بضوء النهار ولكنه أجمل.

تلك الماسات الملونة في أشجار ألماندين ذات البريق المذهل بألوان مختلفة تسطع فتمحو العتمة، وتأتي بالنهار من جوف الليل في منظر خلاب لمعت له عينا حازم.

قامت توسمان بتوديع حازم قائلة:

«إحنا حبيناك أوي وهنحبك أكتر لما تبقى واحد مننا، على العموم هانت.. مش فاضل لك كتير، كلها مسألة وقت وتزورنا تاني»، ثم دلته

على طريق أعشاب ناعمة يستطيع السير عليه دون تأذي قدمه مرة أخرى.

استعد حازم للرحيل وودّع كلا من إلكسندريت ونومينسا..

أخذ حازم يسير وأشجار الألماندين على جانبيه، وفي كل مكان تنير طريقه وترشده للوجهة الصحيحة التي يستطيع بها الخروج من الغابة.

***

أثناء سير حازم في الغابة، سمع صوت خطوات خلفه التفت خلفه لم يجد شيئًا.

تابع السير ولم يهتم، فسمع صوت الخطوات مرة أخرى ولكنه لا يزال لا يرى أحدًا.

نادى حازم سائلًا إذا كان هناك أحد فلم يأتِه جواب؛ فعاد يتابع سيره ولم يهتم كذلك؛ ظنًا منه أن هذا الصوت قد يكون للأشجار في كل شيء غريب في هذه الغابة.

بدأ ضوء الأشجار يخفت تدريجيًا حتى تلاشى.

تسارعت الخطوات واقتربت منه حتى أصبح صوتها مسموعًا جدًا، نظر حازم خلفه فوجد جسدًا ضخمًا يفوقه ثلاثة أضعاف.

في بادئ الأمر ظن حازم أنه حيوان ضخم فأغمض عينيه وظل ثابتًا مكانه لا يحرك ساكنًا، أخذ هذا الجسم العملاق يدور حوله وكأنه يتفقّده، ثم سمع حازم صوتًا أنثويًا رقيقًا يقول:

– أنتَ مين وإيه اللي جابك هنا؟

فتح حازم عينيه ليرى من أين يأتي هذا الصوت، فوجده منبعثًا من هذا الجسم الضخم فتعجب كثيرًا وأجابها:

– أنتِ مين؟

– أنا اللي بسأل هنا، أنتَ تخرس وتجاوب على قد السؤال.

ارتفع صوت ضربات قلبه وتسلل الخوف إلى ثناياه من جديد، ثم أجابها بصوت خافت:

– أنا حازم.

– حازم؟! اسمك غريب.. أنتَ مش من هنا صح؟

– لأ أنا تايه وبقالي كتير بحاول أخرج من هنا، والأشجار كانت بتساعدني وو...

– أشجار بتساعدك! أنتَ شكلك مجنون!

– لأ والله أنا مش مجنون حتى اسألي ألماندين.

– ألماندي؟!

– أيوة، الشجر دا كله اسمه ألماندين وهو اللي نور ودلني على الطريق.

– ودلك إزاي بقى!

– فضل يوصف لي المكان وساعدني أعالج رجلي المجروحة.

– أنتَ مجنون فعلًا، مين يصدق الجنان اللي بتقوله دا؟

– أنا مش مجنون صدقيني، طب استني أنا هثبت لك.

اتجه حازم نحو أشجار الألماندين وأخذ يتحدث معها لكي يثبت لتلك العملاقة صحة كلامه، ولكنه سرعان ما أيقن أنه لا جدوى من ذلك؛ فالأشجار تحولت إلى أشجار عادية اختفى نورها الذي كان يرشده وتحول كل شيء في لمح البصر.

أصاب حازم ذهول ولم يستطع التفوه بحرف، قالت الفتاة العملاقة:

– على أي حال أنا هساعدك تخرج من هنا، بس مش لازم أهل البلد يشوفوك وإلا هيقتلوك.

– يقتلوني! يقتلوني ليه؟

– شكلك مختلف، وكلامك كلام أهبل، لو حد سمعك هيفكرك مجنون، أصغر طفل في البلد حجمه قدك مرتين، أنا هشوف لك مكان تفضل فيه لحد ما أشوف حكايتك إيه.

– بجد، يعني هتساعديني يا...

– ميرال، اسمي ميرال.

الفصل الرابع | ميرال

– اسمك جميل.

– مش وقتك خالص.

– أنا آسف، طيب هنخرج من هنا إزاي بعد ما الأشجار نورها انطفى؟

– تاني هيقول لي أشجار، أنا معايا شعلة استنى أشوف صخرتين وأولعها هتنور لنا الطريق لحد ما نوصل لتيفاوين.

– إيه تيفاوين دا؟

– دا جبل في نهاية الغابة جنب الحاجز النباتي، ما تقلقش كلها كام ساعة والفجر يطلع.

– طب لسه الطريق طويل؟

– بالنسبة لك أنتَ هيكون طويل.

– يا الله!

– يلا بينا نتحرك قبل النهار ما يطلع وأهل البلد يشوفوك.

تحرك كل منهما، ودار في ذهن حازم مئات الأسئلة:

«ما الذي حدث للأشجار وكيف تحولت؟ هل كانت تلك هلاوس، ولكن إن كانت هلاوس كيف شفيت جروح قدميه؟ ومن هي تلك العملاقة؟

وما هي البلدة التي كل سكانها عمالقة إلى هذا الحد»؟

ظل يهرول خلف الفتاة الضخمة، فخطوة واحدة منها بعشر خطوات من حازم، حاول التماسك واستكمال السير حتى سقط على الأرض فاقدَ الوعي.

***

في شوارع أكواتيرا تسير قوافل من جنود الحاكم تقتحم المنازل بحثًا عن الشباب لتطبق عليهم التجنيد الإجباري.

اقتحم أحد الجنود منزلًا صغيرًا نسبيًا مقارنة بالبيوت في البلدة، فوجدوا شابًا نائمًا جرّوه من على سريره جرًا وكأنه قاتل ومأخوذ ليطبق عليه الحكم.

ثار الشاب وأخذ يدفع الجنود بكل قوته محاولًا التخلص من قبضتهم، ولكنه خضع لهم بعد محاولات كثيرة لفك قيود يديه التي كبّلوه بها.

خرج الجنود من المنزل يجرون الشاب من وثاقه، ثم دفعوه إلى عربة ممتلئة بالشباب في سنه، مكبلين بالقيود هم الآخرين

رآه جاره الذي يسكن على مقربة من منزله، الذي تخطى عمره سن التجنيد، حاول أن يتسلل للعربة ويتخلل صفوف الشباب المقيدين ليفك وثاق صديقه، لكنه عجز وخشي أن يراه الجنود فيذبحونه في الحال.

***

عند جبل تيفاوين في فتحة تشبه الكهف تجلس ميرال بالقرب من حازم وهو لا يزال فاقد الوعي، أخذت تحدثه ميرال وتهزه ليفيق:

– قوم بقى، أنت إيه اللس حدفك عليَّ بس! إزاي جسمك صغير كدا وبالتقل دا قسمت ضهري طول الطريق وأنا شيلاك. جيت لي من أنهي داهية بس! طب هعمل فيك إيه أنا دلوقتي؟

أخذت ميرال تعيد تلك الأسئلة مرارًا وتكرارًا حتى رأت حازم يحرك عينيه ببطء فعلمت أنه استعاد وعيه، فاستحالت حالتها وأخذت تهزه قائلة:

– قوم، قوم ما تنامش تاني يلا فوق.

– أنتِ مين؟

– أنتَ وقعت على دماغك ولا إيه؟ أنا ميرال.

– إيه عنيك دي!

– مالها؟

– حاسس إن موج البحر حاضن السما فعيونك، أنا توهت فيهم.

– أنتَ فإيه ولا إيه!

– لا بجد أنتِ إزاي بالجمال دا لو بس تصغري شوية.

– أصغر!

– إه يعني تكشي لحد ما تبقي فحجمي.

– أكش؟

– أنا قلت تكشي!

– بتهيأ لي.

– تكشي حبة صغننين يعني.

– قلت لك سيبك من الكلام دا!

– طب إحنا فين؟

– إحنا في تيفاوين.

– يعني وصلنا؟

– مش بالظبط، بس دا أقرب مكان لبيتي، أنتَ ممكن تشوفه من هنا.

ساعدت ميرال حازم ليقف وساندته حتى خرجا من الكهف ووقفا ينظران إلى البلدة.

رأت ميرال جنود الحاكم يسيرون بجوارهم قوافل من العامة، وأخذت تمعن وتدقق النظر وخيل إليها بأن الجنود يقرعون الناس بالأسواط.

– هو إيه اللي بيحصل؟

– مش عارفة!

– مين الناس دول؟

– دول جنود اليحموم.

– مين اليحموم دا؟

– حاكم أكواتيرا..

– طب ليه لابسين كدا؟

– ما هو دا اللبس العسكري.

– اللبس العسكري بتاعكوا شبه لبس التتار، هو إحنا في سنة كام؟

– إحنا في سنة 78.

– إحنا في 1978؟

– لأ 78 مش 1978.

– طب والتاريخ دا ميلادي ولا هجري؟

– يعني إيه ميلادي وهجري!

– أقصد ال 87 سنة دول نسبة لإيه؟

– نسبة لمرور 87 سنة من اللعنة.

– لعنة!

– أيوة.

– لعنة إيه؟

– لعنة نهر جونداس.

– إيه نهر جونداس دا؟

– لا أنا بزهق بسرعة وأنت أسألتك كتير. أنا هسيبك هنا دلوقتي وهروح البيت أجيب لك حاجة تلبسها في رجلك وأي حاجة تاكلها وتشربها، وأنت خليك هنا اوعى تخرج واوعى حد يشوفك، واوعى تاكل أو تشرب أي حاجة من هنا، مفهوم!

– طيب ما تتأخريش عليَّ لو سمحتِ.

– مش هتأخر.

غادرت ميرال الكهف واتجهت إلى البلدة، قررت أن تسلك بعض الطرق المختصرة لتصل إلى البيت بسرعة؛ حتى تعود إلى حازم في أسرع وقت كما طلب منها.

وصلت ميرال منزلها فوجدت باب المنزل مفتوحًا، أخذت تقترب من الباب ببطء، ثم دخلت فلم تجد أحدًا بالمنزل، أخذت تنادي على أخيها في أرجاء المنزل.

– ساهر! ساهر! ميت مرة أقول له لما يخرج يقفل الباب وراه مش عارفة هيفضل مهمل كدا لحد امتى؟

دخلت ميرال إلى غرفتها وأحضرت حذاءً قديمًا لها يبلغ طول الحذاء قدر ذراع، ثم أحضرت رداءً من الكتان يبدو قديمًا بعض

الشيء، ذا ملمسٍ خشن، وضعت في جيب الرداء بعض ثمرات الفاكهة وقنينة صغيرة بها بعض الماء، ثم همت لتغادر المنزل إذا بصوت يوقفها.

– ميرال!

– عريق!

– أنتِ كنتِ فين!

– كنت في...، ثانية واحدة أنتَ مالك كنت فين؟

– أصل الجنود اقتحموا البيوت بعدما اليحموم أعلن التجنيد الإجباري لكل الشباب اللي سن 100سنة وأقل.

– تجنيد إجباري! ساهر؟ ساهر فين؟

– الجنود اقتحموا البيت وأخدوه، حاولت أفك الحبال اللي كتفوه بيها وأهربه بس ما عرفتش، الحرس لو كانوا شافوني كنت هتدبح.

ألقت ميرال ما بيدها وانطلقت مسرعة إلى قصر اليحموم.

لم تنتبه لنداء عريق عليها، انطلقت وكأنها تسابق الزمن، كل ما يدور بعقلها هو تخليص ساهر من نفوذ هذا الحاكم المتغطرس.

وصلت إلى القلعة وأخذت تصرخ أمام سورها الحديدي تنادي جنود اليحموم ليفتحوا لها.

خرج قائد الحرس برفقته بضع جنود شداد يبدو عليهم القوة، لم تهب ميرال أيًّا منهم، وطلبت منهم أن يدخلوها لمقابلة الحاكم، رفض قائد الحرس تلبية طلبها وأمرها أن تبتعد عن القلعة في غضون بضع ثوان.

– أنتِ لو ما مشيتيش حالًا أنا هأمر جنودي يقطعوا رقبتك، وأنا أكيد هبقى سعيد جدًا لما ملامح وشك الجميلة دي تتعلق على باب بيتي.

تحسست ميرال سروالها من الجنب ثم سحبت خنجرها ووضعته ملامسًا لرقبة القائد، ثم قالت:

– اوعى تكون فاكر إني هخاف منك أنتَ ولا شوية الكلاب اللي وراك دول، لا أنتَ ولا جيشك كلو يقدروا يمسو طرفي.

اتجه الجنود إلى ميرال لتكبيلها دفاعًا عن قائدهم؛ فأشار إليهم بيده أن يتراجعوا.

– عجباني أوي جرأتك، مش بس جميلة لأ دا أنتِ كمان شجاعة وقوية، طالعة لأبوكي، صحيح اللي خلف ما ماتش.

– لو مش مستغني عن عمرك بلغ الحاكم بتاعك إني عايزة أقابله حالًا

– هبلغه، بس مش تنفيذ لأمرك ولا خوف منك.

– أمَّال ليه؟

– هتعرفي لما تقابلي سيدك.

– سيدك أنتَ، أنا ما ليش أسياد.

انهت ميرال حديثها مع قائد الحرس، ثم أمر القائد جنوده أن يرافقوها، انطلقت ميرال داخل القلعة بمجرد أن فتح لها الباب الحديدي، كانت خطواتها تسبق خطوات الجنود، تسير مخترقة الممرات والردهات تعلم قدماها الطريق فتتجه إلى مرادها، حتى وصلت إلى غرفة الحاكم، وهمت بالدخول فأوقفها حراس الغرفة، ثم دخل أحد الحراس يطلب لها الإذن بالدخول من صاحب الجلالة.

استغرق انتظارها أمام الغرفة دقائق معدودات، ثم أتت الموافقة على دخولها.

دخلت الغرفة والغضب يشتعل في ملامحها وتتلاحق أنفاسها فيعلو صدرها ويهبط غيظًا.

وجدت اليحموم جالسًا متكئًا على الأرائك، يرتدي ثوبًا حريريًا ناصع البياض، بجواره حارس يقف وكأنه تمثال لا يلتفت ولا يهتز جفنه، تبدو على ملامحه الصرامة، أمامه أصناف عديدة من الفاكهة والشراب.

نظر إلى ميرال نظرة فاحصة، ثم أشار إلى جنوده أن يغادروا الغرفة وهمّ للتحدث معها.

– قبل ما تقول إيه حاجة خلي الحارس دا كمان يطلع برا، ما تخافش مش هقتلك لو عايزة أقتلك كنت قتلتك من زمان.

– ههههه، حقيقي أنا بحييكِ على شجاعتك، بس مش مستغرب خالص، ابن الوز عوام زي ما بيقولوا.

– من غير جدال خرج الحارس دا برا.

أشار اليحموم إلى حارسه الشخصي ليغادر الغرفة.

– اديني خرجته، أرجو أن معاليكي تكون راضية عني.

– من غير كلام كتير، جنودك اقتحموا بيتي وأخدوا ساهر للتجنيد، لو شيطانك صور لك للحظة إن ساهر يتجند ويبقى عبد ليك هكون مفرغة أحشائك قبل ما الفكرة دي تخطر في بالك حتى.

– حلوة الثقة اللي بتتكلمي بيها، بس ثقتك لو زادت هتعميكِ لأنها هتتحول لغرور، هتفضلي باصة فوق وفي الآخر هتقعي في الحفرة اللي تحت رجليكِ.

– بلاش أنتَ تديني حكم أحسن لك توفرها لنفسك.

– أنا ممكن بإشارة أخليكِ ما تشوفيش النور لباقي حياتك، أنا صبري عليكِ مش هيطول.

– ما تعرفش تعمل حاجة، عارف ليه؟ علشان أنتَ جبان.

– ما فيش حاكم في بيروب كلها بقوتي ونفوذي، اللي يحكم أرض ملعونة زي دي ويقدر يعيش فيها استحالة يكون جبان.

– أنا وأنت عارفين كويس أوي سبب اللعنة، وأنا وأنت عارفين كويس أوي أوي أنتَ وصلت للحكم إزاي.

– باجتهادي.

– بخبثك ومكرك وخيانتك.

– أنا مش خاين.

– قصر الكلام، اؤمر جنودك يرجعوا ساهر حالًا.

– ساهر زيه زي أي شاب في أكواتيرا تطبق عليه القوانين.

– القوانين دي ليك ولكل الجبنا اللي عايشين تحت رحمتك وساكتين.

خرج لي أخويا حالًا وإلا...

– وإلا إيييه؟

– وإلا تبقى بدأت حرب أنتَ فغنى عنها.

– وهتحاربيني بإيه؟

صمتت ميرال هنيهة، ثم أغمضت عينها ونفست زفيرها وعادت ترجم اليحموم بنظراتها، ثم تابعت حديثها قائلة:

– اؤمر جنودك يخرجوا أخويا.

– هخرجه بس مش هيرجع معاكِ، هتشوفيه وتمشي.

– تبقى بتحلم.

- لو اعترضتِ على أي كلمة هأمر جنودي يرموكِ في الشارع.

لاحظت ميرال إنه لا بد من أن تنصاع لأمره حتى تتمكن من رؤية ساهر.

نادى حارسه الخاص وأمره أن يبعث أحد الجنود إلى معسكرات التجنيد ويأتي بساهر لرؤية أخته.

أتى الجندي برفقته ساهر وهو لا يزال مكبلًا بالقيد، وأدخله إلى غرفة الحاكم.

بمجرد أن وقع نظر ميرال على أخيها وعلى هيئته التي يرثي لها، فاضت عيناها بالدمع، ثم جرت صوبه واحتضنته وأخذت تقبله وتقبل جبهته ورأسه ويديه قبلات يعتريها الضعف والهوان.

اغرورقت عينا ساهر بالدموع هو الآخر، وأخذ يواسي أخته ويطمئنها عليه.

- ما تعيطيش أنا كويس.

- حصل لك إيه، عملوا فيك إيه؟ أنتَ كويس؟ فيك حاجة؟

- ما تقلقيش أنا كويس ما فيش أي حاجة أهو.

- ما تخافش مش هسيبك هنا لو على رقبتي.

تدخل اليحموم في الحوار وأشار إلى ميرال قائلًا:

- صدقيني أي محاولة منك لكسر القوانين هتبقى رقبتك هي التمن.

- وأنا مش هخرج من هنا غير وأخويا معايا.

- يبقى هتخرجوا أنتم الاتنين جثث.

نظر ساهر إلى ميرال نظرة شوق ثم قال:

- أنا هبقى كويس صدقيني.

التفت ميرال إلى اليحموم ورفعت يدها لتكفكف دمعها ثم قالت:

– خليه جندي من جنود القلعة أو حارس ليك، بلاش تخليه من كتيبة الأسقاء.

هز اليحموم رأسه بالإيجاب قائلًا:

– وهو كذلك.

احتضنت ميرال أخيها ثم غادرت القلعة والإحباط يتخلل طياتها وقد تمكن الحزن منها.

اتجهت إلى منزلها فوجدت جارها عريق لا يزال جالسًا أمامه منذ أن تركته وذهبت إلى القلعة.

– أنتَ قاعد كدا ليه؟

– مستنيكِ.

– قوم روح بيتك.

– ساهر فين؟

– اتجند.

– كتيبة الأسقاء!

– لأ كتيبة الحرس.

– وأنتِ!

– أنا إيه؟

– هتفضلي لوحدك!

– الوحدة طريق مشيته من زمان وقربت أوصل لنهايته، إيه الجديد في الوحدة يعني!

– الجديد إنك المرادي لوحدك بجد، قبل كدا كان جنبك ساهر، دلوقتي مين جنبك؟

– مش محتاجة لحد جنبي.

– بس أنا محتاج لك.

– ما زهقتش من كتر ما قلت لك لأ!

– أنا مش هبطل أطلبك، أنا بحبك.

– حب؟يعني إيه حب! إحنا في بلد أرضها بتتروي بالدم وأهلها راضعين الكره والغل وسواد القلوب، بتتكلم عن أي حب! الحب ضعف، وأنا مش ناوية أضعف، أنا بستقوى بوحدتي.

– وأنا مش هبطل أستناكِ مهما طال انتظاري ومهما اتأخرتِ.

– أتأخر؟! يا خبر! حازم!

الفصل الخامس | بيراك

ظل الهواء يقبّل وجنتيها ويتخلل النسيم البديع خصلات شعرها الجميل وتداعب مياه النهر أصابع قدميها.

سمعت الموج يناديها لتلهو معه، فخلعت ثوبها وتركته على شاطئ النهر وأخذت تلعب وتحرك رمال النهر بقدميها، وتلقي بعض الكلمات غير المفهومة، ثم تشير بيدها إلى النهر فيتجسّد الماء في شكل رجل يتجه صوبها، ثم تشير بإصبعها إلى العصافير فتعزف لها سيمفونيات عذبة بأصواتها الشجية.

قبّل الرجل المائي يدها، ثم انحنة لها ولجمال مفاتنها، بدأت ترقص معه على الألحان التي تصدرها الطيور وتمشي على سطح الماء وكأنه أرضية من زجاج فاخر ومتين.

سمعت صوت صهيل خيل قادم فطقطقت بيدها فاستحال الرجل إلى ماءٍ كما كان، ثم أشارت إلى الطيور فانقطع صوتها وكأنها ابتلعت ألسنتها.

خرجت من المياه لترتدي ثوبَها بسرعة، ووقفت تنتظر الفارس المغوار الذي اخترق الغابة وحده ممطيًا جواده تاركًا أرضه ليأتي إليها، ولو لزم الأمر أن يأتيها حبوًا لأتى.

خرج من بين الأشجار الكثيفة، فسقطت أشعة الشمس الساطعة على وجهه فأضاء كالبدر ليلة كماله، وتلألأت خصلات شعره السوداء التي زادها وقار تلك الشعيرات البيضاء في مقدمة رأسه ولحيته.

نزل من على جواده الأبيض ذي الغرة السوداء، فتح ذراعيه على مصراعيهم ليستقبلها بصدر رحب؛ فانطلقت نحوه واحتضنته كثيرًا وكأنه عناق المئة عام.

– وحشتيني يا راتيل.

– لو تعرف أنا مشتاق لك قد إيه يا بيراك هتستحرم تغيب عني تاني.

– مش بإيدي والله أنتِ عارفة الظروف.

– لأ مش ظروف قول إنك بطلت تحبني.

– بطلت أحبك! أنتِ اتعميتِ ولا إيه؟ مش شايفة لهفتي ليكِ كل مرة بشوفك؟ وخلينا نفرض إنك مش شايفة، مش حاسة بقلبي بينبض في حضنك وكأنه عايز يخرج من صدري يضمك بنفسه علشان يروي اشتياقه ليكِ، ولّا هو قلبك أعمى البصر والبصيرة.

– أنتَ شاطر بس في كدا تاكل عقلي بالكلام.

– مش كلام دا اللي بحسه معاكِ بجد.

– ولما أنتَ بتحس معايا بكدا سيبت إيه لألما؟

– وليه بس السيرة دي دلوقتي، إحنا مش اتفقنا ما نتكلمش في الموضوع دا تاني ولا هو لازم كل سنة آجي أشوفك أمشي زعلان؟

– أنتَ وعدتني في عيد ميلادي ال150 هنتجوز وأديني تميت ال 150 وبطني كبرت والحمل بان أوي عليَّ، وخايفة أوي أكسن جالا تلاحظ، لولا نظرها الضعيف اللي مش قادر يميز إذا كان دا حمل ولا انتفاخ كنت روحت في داهية، إحنا لازم نتجوز قبل ما أولد.. هنتجوز امتى بقى يا بيراك؟

– أوعدك السنة الجاية نكون سوا، ألما ابتدت تشك في غيابي عن عيد ميلاد بنتي كل سنة وفي نفس الميعاد وأنا مش هقدر أواجهها بحبي ليكِ دلوقتي، ما تنسيش إنها بنت سهيل وإنها ولية العهد، وحكم أكواتيرا وال3 مدائن هيبقوا تحت أمرها بمجرد ما أبوها يموت، وأول ما يموت وتتولى الحكم هتسلمني العرش بصفتي جوزها، وقتها هجيبك تعيشي معايا أنتِ وجالا بعد ما ولي العهد ووريثي اللي في بطنك يشرف وينور الدنيا، ساعتها هتبقي الكل في الكل غصب عنها وعن أي حد، بس أنتِ اصبري هانت يا ريتا هانت.

– لو ليك نصيب في حاجة حتى لو كل السكك ليها مقفولة هتتدبر لحد ما تبقى في إيدك فاطمن وأنا جنبك مش هسيبك.

ضم بيراك راتيل إلى صدره ثانية، ثم قال:

– أوعدك إن فرحتك ولمعة عنيكِ دول ما ينطفوش أبدًا.

ثم وضع يديه على كتفيها وقال لها بشغف وحماس:

– وريني الحركات الجديدة اللي جالا علمتها لك.

ابتسمت راتيل وأخذت تلوح بيدها في الهواء وتنطق تلك الكلمات غير المفهومة مرة أخرى، ثم أشارت إلى النهر فاستحالت المياه إلى ذلك الرجل الذي كانت ترقص معه، والذي بدا وكأنه بيراك بكل تفاصيله، ثم أشارت مرة أخرى إلى الماء فجمد وكأنه بلورات ماسية، دهش بيراك من هذا المنظر الذي يأسر الألباب، ثم طلب منها أن يمتطي جواده حتى يعود لدياره وتبقى في انتظار رؤيته في موعد آخر في عيد مولد آخر في عامها القادم.

***

قد انتشر في كافة أرجاء أكواتيرا والبلدان المجاورة حقيقة وجود ساحرة شريرة تدعى جالا، تسكن في كوخ صغير موجود في الجهة

الشرقية من الغابة، الذي تكسوه أوراق الشجر الذابلة وتزينه جماجم وهياكل بشرية وبقايا عظام بعض الحيوانات، تعلوه سحابة سوداء لا تفارقه ليلًا ونهارًا، تمنع ضوء الشمس من الوصول للكوخ؛ لذا فأرجاؤه معتمة دائمًا، وجوّه مخيف، أمامه بحيرة صغيرة من المياه منبعها نهر جونداس.

يخشى أهل أكواتيرا وسكان المدائن الثلاث في بيروب دخول تلك الغابة خوفًا من تلك الساحرة الدجّالة التي تستوطنها، والتي انتشر عنها أنها تسخر الرياح والنباتات في الغابة لخدمتها وحمايتها من أي دخيل أو غريب.

وأنه من يتجرأ على تخطي الحاجز النباتي الفاصل بين الغابة والبلدة فإن أرواح الأشباح الشريرة التي تحضرها جالا تطارده حتى تتمكن منه وتفصل رأسه عن جسده، وتستخدم جالا تلك الرؤوس في تزيين كوخها، أما أحشاء هؤلاء الضحايا تطعمها للأرواح التي تعيش في البحيرة التي أمام منزلها.

لذلك خيّم الرعب على قلوب كل من بالبلدة بداية من صغارها إلى شيوخها، ولم يقتصر الأمر على أكواتيرا فقط، بل انتشرت تلك الأقاويل والإشاعات في كافة أنحاء جزيرة بيروب، وانقطع الناس عن دخول الغابة.

وحده الفارس المقدام الشجاع بيراك الذي تمكّن من دخول تلك الغابة في إحدى جولاته الاستكشافية؛ نظرًا لعمله كقائد أعلى للحرس، والذي يحتم عليه تطهير البلدة من اللصوص والمجرمين؛ لذا توجب عليه دخول الغابة لتفقدها، فإذا به يلتقيها لأول مرة فتأسر فؤاده بجمالها الفاتن، إنها راتيل ابنة الساحرة جالا.

استطاع بيراك أن يتخلص من كل الأوهام التي كادت تسيطر عليه وتمنعه من الدخول لتلك الغابة، في بادئ الأمر ظن أن ما رآه ما هو إلا وهمًا ولا وجود لتلك الفتاة طاغية الجمال.

ظلَّ يتابع سيره في الغابة ممتطيًا جواده وهو متأهب لحدوث أي شيء، ومستعد لمواجهة الأشباح التي طالما سمع عنها، إلى أن ظهرت له من جديد.

وثب من على ظهر جواده، وظل يجري خلفها إلى أن لحق بها، أمسكها من ذراعها ووضعه خلف ظهرها ليُقيِّد حركتها، ثم أخرج خنجره ووضعه بالقرب من رقبتها.

– أنتِ مين؟

– راتيل.

– بتجري مني ليه؟ أنتِ حرامية!

– لأ، هسرق إيه يعني من الغابة؟

ترك بيراك يدها وأنزل خنجره فالتفتت له، وما إن التقت عيناهما إلا واخذ ينظر إليها فشرد في جمالها حتى فُتن.

ظلَّ يحملق بها ولم ينطق بكلمة، ولم يرجف له جفن فقاطعت شروده قائلة:

– أنتَ دخلت هنا إزاي؟

لم يجيبها وظل شاردًا تائهًا، حقًا إن الصمت في حرم الجمال جمال.

طقطقت بأصابعها أمام عينه فاتسعت حدقتا عينيه، واستعاد وعيه وثباته، وقال لها:

– بتقولي إيه؟

– أنتَ دخلت هنا إزاي؟

– أنا أقدر أدخل أي مكان أنا عايزه!

– ما خوفتش.

– هخاف من إيه؟

– الأشباح.

– بيراك ما بيخافش من حاجة.

– شجاع يعني؟ لأ وكمان مغرور!

– أنتِ مين؟

– سبق وقلت لك راتيل!

– جيتِ هنا إزاي! دخلتِ الغابة إزاي؟ مش خايفة؟

– أخاف من إيه؟

– الأشباح.

– راتيل ما بتخافش من حاجة.

ابتسم بيراك فشعرت بأن الشمس تشرق من فمه، وكأنها ترى الضوء لأول مرة بعمرها، كيف للمرء أن يقع في حب ابتسامة.

– شكلك غلباوية.

– لأ خالص!

– طيب فهميني دخلتِ هنا إزاي؟

– أنا عايشة هنا.

– هنا في الغابة؟

– أيوة.

– عايشة لوحدك!

– لأ أنا وأمي.

– مين أمك؟

– أمي جالا.

– الدجالة؟

– قطع لسانك.

– أنتِ جريئة أوي.

– وأنت لسانك طويل.

وضع بيراك يده خلف رقبته ونظر إليها نظرة إعجاب، أخذ يتأمل عينيها وشفتيها وجسدها الفاتن، احمرت وجنتا راتيل من نظراته التي كادت تودي بها.

ظل يفكر ويحدث نفسه في خيالاته وعيناه مثبتتان في عينيها.

شعرت بحرارة جسده دون أن تلمسه، الصمت لا يزال يخيّم عليهما.

كيف يخبرها بأن جمالها قد أذاب جليد قلبه! إلى أن شق صوته رباط الصمت، ثم قال لها:

– جيباه منين!

– هو إيه؟!

– جمالك دا كله.

– إيه ما عندكش في بلدك دجالة تجيب لك جمال زيه؟

– طيب أنا آسف.

– مش قابلة اعتذارك.

– وإيه يرضيكِ؟

– تيجي تعتذر للدجالة.

– وأنا موافق.

– مش خايف منها؟

– قلت لك بيراك ما بيخافش.

اصطحبت راتيل بيراك إلى الكوخ حيث تعيش هي ووالدتها.

وجد بيراك الكوخ صغيرًا، تكسوه ورود الياسمين وأوراق الشجر الخضراء، بجانبه بحيرة صغيرة تزيّنها الورود الحمراء من جانبيها، يرنو حولها أرانب بيضاء صغيرة.

طرقت راتيل الباب ففتحت والدتها السيدة العجوز التي التهمت التجاعيد كل ثنايا جسدها.

– جيتِ يا راتيل؟

– أيوة يا ماما.

– ومين الأستاذ؟

– دا بيراك.

– يا أهلا، بقالنا فترة ما جالناش ضيوف، اتفضل.

دخل بيراك وراتيل الكوخ، جلس بيراك على أريكة مصنوعة من الكتان، وجلست العجوز في موازاته على أريكة أخرى.

ذهبت راتيل لتعد مشروبًا تُضايف بيراك به، ثم أتت وقالت:

– اتفضل.

– لأ شكرًا مش عاوز.

– دا عصير توت بري أنا اللي عملاه، ما تقلقش مش حاطة لك فيه سم.

ابتسم بيراك وأخذ منها الكوب، ثقبته والدة راتيل بنظرة فاحصة ثم قالت:

– أنتَ جندي مش كدا؟

– أنا القائد الأعلى للحرس.

– عرفتك من لبسك.

– أنتم ليه عايشين هنا؟ ليه مش عايشين في أكواتيرا؟ وليه كل الكلام اللي بيتقال عنك دا؟

– إيه اللي بيتقال؟

– كلام كتير.. زي إنك بتسخّري النبات والجن والأشباح علشان يخدموكِ ويحموكِ من أي حد يدخل الغابة.

– ومين اللي بيقول؟

– كل الناس.

– صدقني يا ابني الناس ما وراهاش حاجة غير الكلام، حتى لو اعتزلت البشر وبعدت وعشت في غابة مهجورة مش هيبطلوا كلام، لو نجحت هيهاجموك ويحبطوك علشان تضعف وتيأس ويبقوا أحسن منك، ولو فشلت هيعايروك بفشلك وضعفك.

الناس بترضي غريزتها وشهواتها بأذى الغير ولو استنيت منهم إنهم يسيبوك في حالك هتموت وأنت مستني.

أثَّرت كلمات جالا في بيراك بشكل واضح وأخذوا يتناولون أطراف الحديث، ثم استأذن بيراك لينصرف ووعدهم بتكرار الزيارة.

ومنذ تلك المرة وبيراك يزور الغابة بصورة مستمرة، ولكنه يكون متخفيًا خشية أن يراه أهل البلدة ويختلقون الأقاويل والإشاعات إيذاء دخوله الغابة.

أخبرت جالا ابنتها أن نفسها غير راضية عن ذاك الرجل، وأمرتها ألا تلقاه ثانية وحذرتها منه قائلة:

– ما تغلطيش غلطتي وإياك تسلمي قلبك للجدع دا، كل اللي حبوا زرعوا قلوبهم ورد وما حصدوش إلا شوك، الحب يا بنتي مش للي زينا.

– بس الحب مش بإدينا يا أمي، إحنا ما لناش سلطة على قلوبنا.

– أنا دوست على قلبي أكتر ما دوست على الأرض.. أنا حبيت، أنا اتمنيت وما طُلتش أي حاجة من اللي اتمنيتها.. كل اللي خدته من حبي حتة لحمة حمراء اترميت بيها في الشارع واتعزلت عن الناس علشان أقدر أحميها وأكبرها وتبقى صبية الأماني، أنتِ الحاجة الوحيدة اللي طلعت بيها من الدنيا ومش هسمح لك تغلطي غلطتي أبدًا.

بدا على وجه راتيل الاستياء وانصاعت لأوامر أمها، ولكن بنفس غير راضية، فقررت أن تخبر بيراك بما دار بينها وبين أمها واتفقا أن يلتقيا مرة واحدة في العام، واختارا يوم ميلاد راتيل الذي توافق مع يوم ميلاد ابنة بيراك لسوء حظه فكان يتغيب عن حضور عيد ميلاد ابنته كل عام ليلتقي بعشيقته في مكانهما المعهود؛ حيث تنتهي عنده حدود الغابة وتبدأ من عنده شاطئ نهر جونداس.

كان في كل مرة يلتقي بها تبعث راتيل الرياح لتلهي أمها عنها؛ حتى لا تلاحظ غيابها عن المنزل، فتجذب الرياح جالا حيث مناطق العشب البعيدة عن النهر وتأخر موعد قدومها للمنزل لتتمكن راتيل من قضاء أمسية هادئة مع بيراك، ثم تعود الرياح مسرعة إلى راتيل بعد انقضاء أمسيتها لتحملها إلى المنزل قبل أن تصل جالا وكأن شيئًا لم يكن، وهكذا كانت الرياح الصديق الوفي لراتيل.

***

عاد بيراك إلى القلعة فوجد التجهيزات التي تُعدّ منذ أيام لاحتفال أهل البلدة بمولد حفيدة الحاكم ابنة بيراك وألما قد انتهت وانتهى الاحتفال.

تسلل إلى غرفة نومه لتفادي أي نقاش يجمعه بألما؛ لأنها كالعادة ومثل كل عام في نفس الموعد توبخه وتلومه بسبب تغيبه عن عيد ميلاد ابنته الوحيدة.

أثناء سيره للطريق إلى غرفته سمع ألما تنادي عليه وشرار الغيظ ينبع من صوتها.

– كنت فين يا بيراك؟

– نفس السؤال بتاع كل سنة، ما بتزهقيش!

– أنتَ اللي ما زهقتش من معاملتك الناشفة مع بنتك؟ فيه أب ما يحضرش احتفال عيد ميلاد بنته؟ كل سنة نخترع لأهل البلد حجة نسكتهم بيها، إيه عندك أهم من بنتك؟

– الأهم من بنتي إني أحمي أكواتيرا وأحافظ على أمن البلد يا ألما، أنا منصبي حساس وما حدش غيري يقدر يقوم بالمهام اللي بعملها علشان أحميكِ وأحمي بنتك وأهل بلدك كلهم.

– أنتَ ليه بتتكلم كأن البنت مش بنتك ولا دي بلدك، جديدة النبرة دي.

– يا ريت بقى تتعودي عليها، ويا ريت كمان تسيبيني أنام علشان في مهام مكلفني بيها أبوكِ لازم تخلص بكرة.

– على فكرة من بكرة هتاخد أوامرك كلها مني، بابا سلمني الحكم النهاردا في الاحتفال قدام أهل البلد كلهم هدية ليَّ ولبنتي اللي هتستلمه بعدي بعد عمر طويل.

– أنتِ وبنتك! وأنتِ هتتفرغي لتربيتها ولا للحكم وتعرفي إيه عن الحكم أصلًا علشان تحكمي.

– هي دي مبروك، أنتَ مش فرحان لي يا بيراك؟!

– هاه! لأ طبعًا يا حياتي فرحان، أنا من صدمتي من كتر الفرحة مش عارف أجمَّع، أنتِ أكيد قدها وأدود يا حبيبتي.

– طب يلا تعالي نروح لميلو قول لها أي حاجة تفرحها، دي فضلت مستنياك النهاردا كتير وزعلت أوي لما ما جتش.

– حاضر يا حبيبتي.

ذهب بيراك وألما إلى غرفة ابنتهما فوجداها تجلس على سريرها تحتضن ركبتيها وتبكي.

فوجئ بيراك وارتبك عندما رآها تبكي، وطلب من ألما أن تخرج وتتركهما.

جلس بيراك على طرف السرير واحتضن صغيرته وقبَّل رأسها، ثم أمسك ذقنها بعطف ورفع وجهها وطلب منها أن تنظر إليه، ثم قال لها:

– مالها فرحتي زعلانة ليه؟

– أنتَ مش بتحبني يا بابا؟

– لأ طبعا أنا بحبك، فيه أب ما يحبش بنته؟

– طب ليه كل سنة بتسيبني يوم عيد ميلادي وتمشي؟

– يا حبيبتي بابا بيروح بيقبض على المجرمين والحرامية علشان ما يبوظوش عيد ميلاد ميلو ويسرقوا لعبها.

– يعني أنتَ بتحبني؟

– آه طبعًا، وعارفة كمان ههديكِ إيه!

– إيه؟

– أصيل.

– الفرس بتاعك اللي بتحبه!

– أيوة، وهننزل بكرة الصبح أول ما تصحي أعلمك إزاي تبقي فارسة شجاعة زي بابا.

– أنا بحبك أوي يا بابا.

احتضن بيراك ابنته وأمها تقف خلف الباب تسترق السمع لِما يقولون وقد سرَّها هذا الحديث.

وقررت أن تكافئ زوجها هو الآخر بتسليمه عرش أكواتيرا.

***

هناك في الغابة تقف جالا على قمة جبل تيفاوين تراقب أحوال البلدة بعد أن أنهت رحلة البحث عن أعشاب برية في الغابة، تستخدمها لصنع بعض المركبات التي تفيدها في أعمال السحر.

لاحظت جالا وجود أنوار وصخب في البلدة، يصل ضجيجه إلى دروب الغابة الهادئة.

علمت أن اليوم هو عيد مولد حفيدة سهيل حاكم أكواتيرا، الذي يصادف عيد مولد راتيل ابنتها.

جلست جالا على صخرة، ثم أوقدت نارًا من أخشاب صغيرة كانت تحملها في حقيبتها القماشية، وشخصت ببقايا بصرها بعيدًا تتأمل تلك الأضواء والحياة الصاخبة في أكواتيرا والتي حرمت منها منذ أن قنطت بتلك الغابة.

شعرت بأنفاس دافئة خلفها، فالتفتت بسرعة فوجدت رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا، لم تستطع التعرف على ملامحه بسبب ضعف بصرها.

ترى من هذا الغريب الذي تجرأ ودخل الغابة واستطاع أن يصل أيضًا إلى تيفاوين!

وقفت، مدت يدها تتحسس وجه هذا الشخص ثم قالت في ذهول:

– سهيل؟!

– إزيك يا جالا؟

– إيه اللي جابك هنا وجيت إزاي؟

– جيت علشان أشوفك.

– لا والله فيك الخير، أنتَ أصلا لسه فاكرني.

– عمري ما نسيتك، زي ما صوابعك لسه حافظة ملامحي.

– ويصح حاكم البلد يسيب عرشه ويدخل الغابة اللي عايش فيها الساحرة الشريرة اللي بتقتل في الناس.

– أنا اتنازلت عن الحكم ووليته لألما.

– ألما مين؟

– ألما بنتي.

– قصدك ألما بنت حور وغيث؟ حور مرات غيث حاكم أكواتيرا اللي سيبتني علشانها بعد ما جوزها مات؟

وقبلت إنك تنسب اللي في بطنها ليك علشان توصل للحكم، ورميتني أنا وبنتك اللي من دمك ولحمك في غابة ما بيدخلهاش صريخ ابن يومين؟ وآخر المتمة بتحتفل كل سنة بعيد ميلاد بنت ألما اللي لا هي دمك ولا لحمك وسايب عرضك وشرفك ينهش فيه الكلاب الضالة!

– أنا آسف يا جالا عن كل اللي حصل مني، ما كانش بإيدي حاجة أعملها، الحكم كان هيروح من إيدي.

غيث مات وحور كانت حامل في ألما وما حدش من أهل البلد يعلم بالحمل دا، كان لازم أوصل للحكم لو هيحصل إيه، وما كنش قدامي حل تاني.

– راجع بعد إيه يا جلالتك! بعد ما العضمة انحنت والشعر شاب، ما رجعتش ليه لما حور ماتت، إيه أخرك كل دا؟

– ما كانش ينفع يا جالا منصبي كان حساس جدًا وما يسمحليش إني...

– إنك تجيب ساحرة دجالة تعيشها في القلعة وتعترف قدام الناس بنسبك لبنت زي راتيل اللي هي في الأساس أحق بكل حاجة من ألما.

– أنا ماقصدش كل دا، أنا راجع علشان بحبك يا جالا.

– هيجي عليك وقت وتعدي بنقطة ضعفك بس مش هتضعف.. أنا كبرت أوي، كبرت وعرفت إن الحب مش إيدين مشبكة في بعض وشوية كلام حلو، الحب حضن يحميك من قسا الدنيا مش يجردك ويعريك ويرميك تنداس تحت الرجلين، الحب نظرة واحدة بس تحسسك إنك سكنت الجنة مش جفا وفرقة وقسوة. أنت ما حبتنيش يا سهيل، أنتَ ما حبتنيش. استيقظ سهيل من نومه وهو يردد: «لأ يا جالا أنا لسه بحبك، سامحيني يا جالا».

سمعت ألما صوت أبيها أثناء سيرها في الردهة وهي ذاهبة إلى غرفتها، فأدلفت إلى غرفته مسرعة، وجدته يتصبب عرقًا ويبدو على وجهه الحزن والاضطراب سألته ما به فلم يجبها وطلب منها أن تحضر له كوبًا من الماء.

خرجت ألما مسرعة لإحضار الماء ثم عادت للغرفة وجلست بجواره ومدت يدها تناوله الماء، ولكنه لم يجب أخذت تحدثه فلم يجب بدأت تهزه وهو لا يزال ساكنًا لا يستجيب، عيناه لا تزال تحدق بالسقف وضعت يدها بالقرب من أنفه فلم تشعر بحرارة أنفاسه، تحسست صدره لثوانٍ فوجدت النبض قد تلاشى.

وقع كوب الماء من يدها فانسكب على الفراش بجانب أبيها، وأخذت تصرخ حتى اجتمع حولها كل الجند والحراس بالقلعة.

***

اجتمع أهل أكواتيرا جميعًا يشيعون الجنازة ببالغ الأسى والحزن.

كانت جنازة عسكرية كما يجب أن تكون؛ حشود من العامة تقف متراصة على جانبي الطريق يحملون الورود، يسير جند القلعة على رأسهم بيراك القائد الأعلى للحرس ويحملون النعش على أعناقهم.

بدأت جموع الشعب تلقي بالورود على الجُند المارّين في مشهد مأساويٍّ.

انتهت الجنازة وتم تشييع جسمين سهيل وبقيت البلدة في حالة من الاكتئاب لعدة أيام، إلى أن أصدر فرمان من ألما ولية العهد باجتماع أهل البلدة في الساحة أمام القلعة.

بدأ الأهالي بالتجمع واحدًا تلو الآخر، حتى امتلأت الساحة عن آخرها.

خرجت ألما من القلعة وصعدت المنصة التي أمرت الجند بنصبها، أخذت تتحدث مع الناس وتطمئنهم على أحوال البلدة بعد أن انتقلت روح أبيها إلى السماء، ثم أعلنت تخليها عن منصب الحكم وتولية زوجها بيراك حكم أكواتيرا والثلاث مدائن التابعة لها «تيجان وأغاريد والرملة».

علا صوت الجموع المحتشدة مباركين للقائد الشجاع بيراك على منصبه الجديد، وسادت روح البهجة في أكواتيرا من جديد.

***

في إندلوسيت.. تجلس راتيل بجوار الكوخ أمام بحيرة المياه، شعرت بألم شديد أسفل بطنها، حاولت التغلب على هذا الألم؛ فقامت

وأحضرت قطعة من القماش وربطتها على بطنها كالنطاق؛ ازداد الألم وشعرت وكأن روحها تفارق جسدها، والله لو أنها سكرات الموت لكانت أهون عليها من هذا الألم.

ظلت تقاوم وجعها، ثم قامت ثانية، ولكن هذه المرة أحضرت جوربًا قديمًا باليًا، وبعض من حبوب الفاصوليا وإناء معدني صغير، وخرجت أمام الكوخ، ثم أوقدت نارًا، ووضعت بها الإناء المعدني وبداخله حبوب الفاصوليا وتركتها على النار لدقائق معدودة، ثم حملت الإناء بإحدي فردتي الجورب، وسكبت ما به من حبوب في الفردة الأخرى، ثم جلست على الأرض ورفعت الثوب عن بطنها وأزاحت هذا النطاق ووضعت الجورب الذي يحوي الحبوب الساخنة.

لم تفدها كل تلك الحيل في التغلب على هذا الألم المبرح، كانت تشعر وكأن أحشائها تعتصر، ثم اندفع الماء من أسفلها وكان هذا طلق الولادة، أخذت تصرخ وتنادي على أمها ولكن دون جدوى، فقد كانت جالا تجمع الأعشاب والثمار من الجهة الجنوبية للغابة.

لا تعلم ماذا عليها أن تفعل! وكيف تقوى على هذا وكيف تكون الولادة!

وما عساها تفعل، وكيف يكون تخليص الروح من الروح!

بدأت رأس الجنين تخرج وتتباين تدريجيًّا من فرجها وهي تدفع بطنها بكلتا يديها

تتمنى أن تخرج روحها لتتخلص من هذا الألم.

أخذت تدفع بيدها وتصرخ، ارتفع صوت صراخها فأنّتَ الأشجار والنباتات لأنينها.

خرجت رأس الطفل كاملة وأخذت تدفع بكل ما تبقى لديها من قوة حتى انزلق الجنين واندفع خلفه سيل من الدماء.

ظل هذا النزيف لدقيقتين ثم توقف، سحبت راتيل جنينها إلى جوارها، ثم حاولت أن تنزع عنها ردائها، وأخذت تحاول أن تعتدل لتنزعه إلى أن خلعته وجردت نفسها من ملابسها وحملت صغيرها من على العشب وغطته بثوبها، ثم احتضنه ونامت جواره على أرض الغابة بعدما خارت قواها.

***

في حديقة القلعة يقف بيراك بجواره فرسه المفضل «أصيل» وتمتطيه ابنته.

أخذ يسحب الفرس من لجامه ويحدث ابنته ويخبرها كيف تكون الفروسية، وكيف تكون شجاعة لا تهاب أي أحد، لا تخشى الموت، ولا تخشى ذي سلطان، تحارب من أجل كرامتها وتدافع عن شرفها مهما كلفها الأمر.

الفصل السادس | تيفاوين

نظر عريق إلى ميرال بدهشة ثم قال لها:

– حازم إيه!

– ما لكش دعوة أنتَ، أنا لازم أمشي عندي مشوار مهم.

– مشوار إيه؟

– قلت لك ما لكش دعوة.

انطلقت ميرال تاركة عريق خلفها وقد عز عليه هوانه، أخذ يحدث نفسه ويعاتبها على ضعفها.

في كل مرة يسترق النظرات ليراها خلسة وهي تمشط شعرها، كان يشعر وكأنها تعقد قلبه على خصلاتها كرباط لضفائِرها.

كيف لها أن تغمد سهام حبها في قلبه! وكيف تجرؤ على إيقاعه في فخاخ عشقها! كيف لمثله أن يعشق مثلها!

كان ينوح لوجع قلبه إذا قابل طيف رائحتها بالصدفة.

جلس عريق على الأرض وأسند ظهره على باب منزلها وأخذ يحدثها كما وكأنها ما زالت أمامه.

أنا والله ما كنتش ناوي أحبك، بس قلبي اتمنى يلمس نجوم سما ضحكتك، طاوعيني واسمعي.

***

وصلت ميرال إلى الجبل حيثما يوجد حازم وهي تتصبب عرقًا، وقفت لتلتقط أنفاسها دقيقة ثم أخذت تنادي عليه:

– حازم! حازم! راح فين المعتوه دا!

أخذت تكرر نداءها في انتظار هذا الأبله الذي طلبت منه ألا يتحرك من مكانه إلى أن وجدته عائدًا.

– أنتَ كنت فين؟!

– أنتِ مين؟

– أنتَ نسيتني تاني!

– يا ريتني نسيتك دا أنا فكرتك مش موجودة أصلًا فكرتك هلوسة من ضمن الهلاوس.

– أنتَ روحت فين؟

– روحت أعمل زي الناس.

– الناس بيعملوا إيه؟

– روحي اسألي الشجرة هتقول لك بيعملوا إيه.

– هنبتديها باستظراف!

– لأ مش بستظرف والله، أنا عايز أمشي من هنا وأرجع بلدي.

– هشوف حكاية بلدك دي بعدين بس دلوقتي لازم نستنى لحد بليل، مش هينفع نمشي بالنهار كدا الناس هيشوفوك.

– كنت سامع إن فيه حد هيجيب لي حاجة أكلها، أنتِ جوعتِ وأكلتِهم في الطريق ولا إيه؟

– لأ.. دا أصل ساهر...

– ساهر مين؟

– وأنت مالك أنت!

– يا ستي ما ليش هترجعيني امتى؟

– استنى هنا لبالليل وما تتحركش من مكانك تاني لحد ما أرجع أجيب لك حاجة تاكلها.

– لأ وهو أنتِ فاكرة إني هستناكِ! أنا صرفت نفسي خلاص.

– يعني إيه؟

– أكلت من الثمار بتاعت إلكسندريت.

– يا خبر! أنا مش قايلة لك اوعى تاكل أي حاجة من هنا علشان الغابة ملعونة؟

– ما أنا قلت لك فكرتك هلاوس مش حقيقة وأكلت منها، وبعدين ما أنا واكل منها من قبل ما أشوفك أصلًا وما جراليش حاجة.

– وأنا اللي فكراك مجنون أتاريك أكلت من الغابة.

– أنا مش فاهم حاجة.

– مش لازم تفهم دلوقتي إحنا هنستنى هنا لحد ما الشمس تغيب وهنمشي، وبعدين نشوف هنعمل إيه في المصيبة اللي عملتها دي.

– على فكرة أنا اللي أكلت وأنا اللي تايه ومش عارف أرجع بلدي، وأنا اللي في مصيبة أنتِ تاعبة نفسك في الليلة دي ليه؟

– تعرف ما سمعش نفسك لحد ما الشمس تغيب، تعرف!

– أعرف جدًا، هو أنا هموت وأتكلم معاكِ يعني ولا إيه! هه.

زجرته ميرال بنظراتها، ثم جلست تفكر كيف ستتخلص من هذا الأجدب الذي يمكن أن يكشف لأهل أكواتيرا أمرها.

لا بدّ أن تعيده إلى بلاده بأسرع وقت قبل أن يراه أحد من البلدة ويتعرف عليه من هيئته المختلفة.

مرت الساعات ببطء شديد والضجر والملل يسيطر على كليهما.

فجأة شعر حازم بألم عظيم في جميع أطرافه، وكأن أحدهم كبَّل يديه وقدميه بالحبال وأخذ يشده من وثاقه حتى كاد ينزع أطرافه من جسده.

صرخ من شدة الألم، فانطلقت ميرال نحوه لترى ما به، تشنج جسده وكأنه أصيب بصرع وانتابه صداع شديد أخذ يفتك بدماغه فتكًا، ازداد دوي صرخاته وميرال بجانبه تمكن الرعب من قلبها ولم تعد تعلم ماذا تفعل.

بدأ جسم حازم يتمدد وكأنه قطعة من عجين، بدأت أطرافه في النمو والتمدد إلى أضعاف حجمها وبرزت عضلات وجهه، نما جسده كليًّا حتى أخذ هيئة أهل أكواتيرا العمالقة.

اختفى صوت صراخ حازم وظلَّ جسده على ما هو عليه، بعد أن تمدد وتمزقت ثيابه التي كان يرتديها، فما عادت تواري حتى عورته.

شقت ميرال قطعة من ثوبها وغطت نصفه السفلي بها، وجلست إلى جواره ويداها ترجفان.

مرَّ وقتٌ ليس بقليل وحازم لا يزال ملقيًّا على الأرض لا يزال عاريًا عدا القطعة القماشية التي تستر عورته، لا تزال ميرال بجانبه لا تحرك ساكنًا.

ظنت للحظة بأن روحه قد فارقته، ولكنها اطمأنت حين وضعت يدها على صدره وشعرت بضربات قلبه التي تنبض مسرعة وكأنها تسابق الريح.

ظلت بجواره تنظر إليه وإلى هيئته الجديدة حتى يفيق.

شقت جزءًا آخر من ردائها وأخذت تجفف قطرات العرق التي تتصبب من وجهه.

بدأت تتأمل ملامحه المتعبة، لم ترَ رجلًا في أكواتيرا بهذا الحد من الجمال! من أين له كل هذا؟

الآن تشهد قمة تيفاوين بأن قلبها ولأول مرة ينبض لرجل.

حاولت أن تعود لرشدها وثباتها، ولكنها لم تستطع السيطرة على مقلتيها. وكيف تحيد بنظرها عنه وقد رأت الجنة في وجهه.

ما كادت تنهي شرودها فيه حتى رأته يتحرك ببطء، ها قد استعاد وعيه، انفرجت أسارير ميرال وأخذت تحدثه:

– قوم يا حازم فوق، أنتَ كل شوية هيغمى عليك، فوق بقى.

وضع حازم يده على رأسه وكانت ما زالت تؤلمه، وكأن أحدهم طرق على رأسه بمطرقة بدأ يتأوه ثم حاول النهوض.

ساعدته ميرال لينهض وقالت:

– ها فُقت، اوعى تقول لي أنتِ مين تاني!

– أنتِ مين؟

– يووووووه

– ميرال!

– الحمد لله، الذاكرة لسه بخير.

– هو إيه اللي حصل؟

– ولا حاجة يا سيدي، بقيت أكواتيري.

– أكواتيري؟!

هزت ميرال رأسها بالإيجاب، ثم أشارت إلى جسده فقام حازم واعتدل في جلسته، ثم بدأ ينظر إلى جسده وأطرافه؛ أصابه الذهول وكأن أحدهم صدمه بصاعق كهربائي.

أخذ ينظر إلى يده وقدمه ولا يصدق ما حدث له، لم يجد على جسده أي ثياب فقد انشقت ثيابه حين تمدد جسده، أخذ يلملم ما تبقى من ثيابه المشقوقة ويضعها على جسده، ثم نظر إلى ميرال وقال:

– إيه اللي حصل لي، أنا بقيت عامل كدا ليه، إيه اللي عمل فيَّ كدا!

– اهدا بس اهدا، أكيد لما أكلت من الغابة صابتك اللعنة زينا، فطبيعي إنك تتحول وتبقى شبهنا، إحنا برده قبل ما اللعنة تصيبنا كنا في جسمك وهيئتك، بعد كدا أجسامنا اتحولت للشكل اللي أنتَ شايفه دا.

– لعنة إيه؟ أنا مش فاهم حاجة.

– أنا هفهمك كل حاجة بس دلوقتي خليك هنا واوعى تتحرك من مكانك، هروح أجيب لك لبس من البيت.

– هتمشي تاني!

– ما تقلقش، هرجع لك على طول.

***

راتيل

عادت جالا إلى الكوخ بعد أن أنهت رحلة جمع الأعشاب من الغابة، بمجرد أن وصلت إلى الباب سمعت صوت بكاء رضيع؛ تعجبت جالا من هذا الصوت.

أخذت تنظر حولها وتدقق النظر لم تتمكن من رؤيته، فاعتمدت على ما تبقى لديها من حاسة السمع، وأخذت تسير تجاه صوت بكاء هذا الرضيع إلى أن وصلت إلى البحيرة المجاورة للكوخ من الخلف.

أخذت تمعن النظر حتى استطاعت تحديد مكان الطفل، ووجدت أمه ملقية بجواره على الأرض وهي مجردة من ملابسها.

جثت جالا على ركبتيها ببطء وأخذت تتحسس وجه تلك المرأة، وسرعان ما تعرفت أصابعها على ملامحها وعلمت أنها ابنتها راتيل.

انتقضت جالا من صدمتها، ثم دخلت الكوخ وأحضرت بعض الماء والأعشاب ومعطف من اللباد، وعادت مسرعة إلى راتيل.

سكبت الماء في وجهها، ووضعت بعض الأعشاب ذات الرائحة النفاثة بجوار أنفها لتستعيد وعيها.

بدأت راتيل تحرك عينيها ببطء إلى أن استعادت وعيها، حملت جالا الصغير إلى الكوخ، ثم عادت إلى راتيل وأخذت تساعدها لتدخلها هي الأخرى.

اتكأت راتيل على يدي أمها وسارت ببطء يشوبه الألم إلى أن وصلت إلى باب الكوخ، ثم دخلت هي وأمها.

لم تستطع جالا تفسير أي شيء مما رأته، ولكنها فضلت الصمت وعلاج جرح راتيل إثر الولادة ببعض تراكيب الأعشاب، ثم أعدت لها مشروبًا دافئًا وبعض الثمرات الغنية بالعناصر الأساسية للغذاء لتعويض الدم الذي فقدته.

ثم اتجهت جالا للرضيع وطهرته من الدم واقتصت حبله السري من بطنه، وأحضرت قطع صغيرة من القماش صنعت منها لفافة للطفل، ثم وضعته في السرير بعد أن اطمأنت عليه وعلى صحته.

جرت الأحداث سريعًا وكل ما يشغل جالا سلامة راتيل، لم تتمكن من سؤالها عن أي شيء إلى الآن.

من أين لها بهذا الرضيع؟ ومن أبيه؟ وكيف لم تخبرها!

دارت الأسئلة في عقل جالا كالعاصفة، ولكنها استطاعت السيطرة على نفسها والتحكم في زمام غضبها إلى أن شفيت راتيل بالكامل وسارت بصحة جيدة.

الآن يمكنها سؤالها ومعرفة الأمور التي استتارت عنها كل تلك الفترة.

– راتيل.

– نعم يا أمي؟

– أظن أنتِ عارفة أنا هكلمك في إيه!

– عارفة.

– أنا عايزة أعرف إيه اللي حصل بالظبط؟ وإيه اللي لسه مخبياه عني.

– ما عادش حاجة تتخبى خلاص يا ماما.

– من مين الطفل دا!

– بيراك.

– إيه! قائد حرس أكواتيرا!

– أيوة.

– أنا مش منعتك منه.

– ضعفت، ضعفت قدام حبي ليه.

– الحب نفسه ضعف، إزاي قبلتِ بكدا.

– قال لي هيتجوزني أول ما يوصل لحكم أكواتيرا.

– أبوكِ قالها زمان، وشوفي حالي اترميت أنا وأنتِ فين.

– أبويا! مين أبويا؟ أنتِ مش قلتِ أبويا كان أسكافي ومات وأنتِ حامل فيَّ وأخوه طمع في البيت وطردنا منه؟

– ....

– ردي ساكتة ليه!

– كل دا كدب، أبوكِ سهيل حاكم أكواتيرا، اللي رمانا هنا علشان يوصل للحكم وأديكِ بتعيدي حكايتي وهتترمي هنا أنتِ وابنك معايا لحد ما نموت كلنا.

– سهيل أبويا! يعني أنا أبويا حاكم البلد وكنتِ مخبية عني كل الفترة دي؟ وأنا فاكرة إن أبويا كان راجل فقير وأنا بنت أغنى راجل في الجزيرة كلها، يعني ألما أختي؟!

– لا ألما مش أختك، ألما بنت غيث الحاكم السابق اللي سهيل كان قائد الحرس بتاعه، واعترف بيها على إنها بنته علشان يوصل للحكم. أنا ما خبيتش عليكِ بمزاجي، ولو كنت قلت لك مكنتش هشوف في عنيكِ غير الحسرة وأنا قليلة الحيلة، الغابة دي حميتنا من ظلم الناس اللي برا، إحنا مش عايشين في غابة هما اللي عايشين في غابة.

– ما كانش حقك تخبي عليَّ، كان لازم تقولي لي وأنا ليَّ حق الاختيار. عايشة كل دا معاكِ على كدبة حبستيني جواها.

– أنا كنت بحميكِ يا راتيل.

– حمايتك ليَّ دي خنقتني، أنا هخرج من هنا وأروح لأبويا، وأكيد لما يشوفني هيفرح ويعترف بيَّ قدام أكواتيرا كلها، ووقتها بيراك هيفرح ونتجوز ونعيش سوا في القلعة.

– أنتِ بتحلمي، لو فاكرة إن اللي في دماغك دا هيحصل تبقى اتجننتِ، لو عايز يعترف بيكِ كان اعترف من زمان، ارجعي عن اللي في دماغك دا يا راتيل.

– لأ، الوضع اتغير، زمان كان قائد حرس، دلوقتي هو الحاكم وأنا وريثته الوحيدة بما إن ألما مش بنته الشرعية. إحنا لازم نخرج من القمقم اللي ساجنين نفسنا فيه دا بق.

– مش هسمح لك بكدا، ومش هتسيبي الكوخ دا ولا هتفارقي الغابة دي لحد ما نموت ويموت سرنا ويتدفن معانا، ودا مش طلب دا أمر أنتِ سامعة.

تغيرت نبرة صوت جالا واشتعل غضبها لأول مرة تنهر راتيل بتلك القسوة؛ اضطرت راتيل أن توافقها ولكن نفسها غير راضية بتلك الأوامر التي فُرضت عليها.

وكيف تقبل بأن تكون هي ابنة الحاكم وألما تتوج بالعهد بدلًا منها، وكيف يحق لألما أن تحظى بالجاه والحسب والنسب وهي ليست ابنة سهيل. بأي حق تستولى على قلب بيراك وراتيل أحق بحبه منها.

ظل الشيطان يزين الخراب في عينها ويهيئ لها الشرور ويسخر لها كل الطرق لعصيان أوامر جالا.

فكرت راتيل في أن تتسلل في اليوم التالي أثناء انشغال جالا بجمع أنواع جديدة من الأعشاب، وتذهب إلى القلعة حيث تجد أبيها الذي حرمت منه منذ مهدها وحبيب قلبها بيراك.

وفي صباح اليوم التالي حملت راتيل طفلها وخرجت من الكوخ خلسةً وسلكت الطريق المؤدي إلى الحاجز النباتي بين أوكواتيرا والغابة..

لأول مرة بحياتها تدعس قدماها أرضًا غير أرض الغابة، وجدت راتيل في أكواتيرا أجواءً غير التي اعتادت عليها؛ الطقس حار للغاية، الشمس تطلق رصاص أشعتها مباشرة في رؤوس الناس...

في الغابة... يتسلل الضوء من الثغرات بين غصون الأشجار الكثيفة العالية حتى يصل إلى كوخها، كما أن الأرض جافة وصلبة وينبعث منها حرارة تكاد تخترق حذاء راتيل وكأن الشمس باتت في جوف الأرض.

لم تحب راتيل تلك الأجواء، ففي الغابة الأرض طينية رطبة، العشب يحتضن قطرات الندى حتى إنه يمكنك السير على تربتها دون حذاء.

تحملت راتيل عناء الطريق وأخذت تسأل المارة عن الطريق إلى القلعة، حتى استطاعت أن تصل إلى سور القلعة الحديدي بعد مشقة وتعب.

طلبت راتيل من الحراس أمام القلعة أن يخبروا حاكمهم سهيل الكنعاني أن ابنته بالخارج تنتظره، سخر منها الجند وظنوا أنها مجنونة وطلبوا منها أن تنصرف وإلا رجموها بالسياط.

علا صوت راتيل وأصرت ألا تمشي، وكررت طلبها بأن يخبروا أبيها بوجودها بالخارج.

أخبرها أحد الجنود بأن الحاكم قد صاحبته المنية وشيع جثمانه منذ أربعة أيام، وأن بيراك كبير الحرس هو من تولى الحكم نيابة عن صاحبة الجلالة زوجته.

ثارت راتيل على الجنود وأخبرتهم أنها هي صاحبة الجلالة ابنة الحاكم، وأن بيراك حبيبها وهذه القلعة إحدي ممتلكاتها.

ضحك الجنود وأخذوا يتغامزون ويسخرون منها؛ ازداد غضبها وفكرت في أن تنادي على بيراك ليخرج لها ويعاقب هؤلاء الجنود الأغبياء على سخريتهم منها.

أخذت تنادي عليه وتردد اسمه في حين يدفعها الجنود محاولين أبعادها عن القلعة.

سمعت ألما صوت راتيل من شرفة غرفتها وهي تصرخ مستغيثة ببيراك أشارت إلى حارس مارٍ بحديقة القلعة أسفل الشرفة بأن يخرج ويأذن لتلك السيدة بالدخول.

خرج الحارس وأذن لها بالدخول، فرمقت راتيل الحرس على البوابة بنظرة غاضبة، ثم دخلت وسارت خلف الحارس.

بدأت تتطلع إلى الممرات والردهات داخل القلعة حتى اتسعت حدقتا عينيها من جمال ما ترى، وأخذت تتخيل حياتها المقبلة هي وبيراك وطفليهما وأمها جالا.

أمرها الحارس بأن تنتظر السيدة ألما في غرفة الاستقبال، جلست على أريكة اسفنجية مغطاة بكسوة حريرية، أمامها منضدة تحمل أنواعًا مختلفة من الفاكهة ذات ألوان شتى.

تركت راتيل طفلها على الأريكة وقامت تتذوق جمال تلك المناظر الخلابة والألوان الجذابة على الحوائط، والرسوم المزركشة في كل جانب، والأثاث المطلي بماء الذهب.

أثناء انبهارها بكل ما رأته دخلت ألما، كانت راتيل تسمع عنها كثيرًا من بيراك، أخيرًا وللمرة الأولى تراها.

كانت ترتدي فستانًا أزرق اللون، مصنوعًا من قماش فاخر لم تره من قبل، ليس كتان وما هو بصوف، ولا حتى حرير، لا تعرف ما هذا النوع، جَلّ ما عرفته أن تلك هي ثياب الأميرات.

شعرها طويل، لونه أسود كظلمة الليل، وجهها أبيض ومستدير كالبدر ليلة تمامه، عنقها طويل معلق به سلسال فضي به حجر كريم من نفس لون الفستان، جسدها ممشوق، أصابعها طويلة ورفيعة وأظافرها مقلمة يزين إصبعها خاتم فضي رقيق.

حدثت راتيل نفسها قائلة: «ما حاجة بيراك بي وزوجته آية من الجمال».

قطعت ألما شرودها قائلة:

– يلزم خدمة؟

– هاه.

– سمعتك بتتخانقي مع الحرس على البوابة، فيه أي مساعدة أقدر أقدمها لك؟

– أنتِ ألما!

– أنا صاحبة الجلالة، إزاي تجرؤي تناديني باسمي.

– أنا راتيل.

– مين راتيل؟

– بنت الحاكم سهيل.

– أنتِ الظاهر عليكِ مجنونة!

– لأ خالص أنا مستوعبة موقفك وحقك ما تصدقيش بس حقيقي أنا بنت الحاكم.

– خليني معاكِ في إنك بنت الحاكم، كنتِ فين السنين دي كلها، ليه ما جيتِش وبابا عايش!

– ما كنتش أعرف إني بنته غير لما جالا قالت لي امبارح.

– مين جالا؟

– أمي.

– وهي فين؟

– في الغابة.

– أنتِ بنت الدجالة اللي ساكنة الغابة؟

– ما تقوليش دجالة.

– ما هو يا إما أنتِ مجنونة يا إما نصابة انطقي وقولي عايزة إيه بدل ما أخلي الحراس يرموكِ برا.

– حراس إيه اللي يرموني برا، أنا هنا في بيتي، وحتي لو مش علشان أنا بنت الحاكم فعلشان أنا وبيراك هنتجوز.

– أنتِ بتخرفي بتقولي إيه امشي اخرجي اطلعي برا.

– أنا مش هخرج ومش هروح في أي مكان، لو مش مصدقاني اندهي بيراك يثبت لك ويعرفك أنا مين.

تدفق الدم في عروق ألما وأخذت تنادي بصوت مرتفع علة بيراك.

كان بيراك يتنزه مع ابنته في الحديقة الخلفية للقلعة، وأتاه نداء من أحد الجنود فترك الفرس ونزل مسرعًا متجهًا حيثما توحد ألما.

أدلف بيراك الغرفة لا يعلم ما سبب كل تلك الجلبة، بمجرد أن رأته راتيل حملت طفلها وضمته إلى صدرها، ثم اتجهت به صوب بيراك بعد أن انفرجت أساريرها فرحة برؤيته.

– بيراك، حبيبي وحشتني، أنا جبت لك الولد اللي بتحلم بيه، ابننا أهو يا بيراك، هنسميه إلياس زي ما كان نفسك تسميه، وهنعيش سوا ونشوفه بيكبر كل يوم قدامنا.

نظر بيراك إلى راتيل وملامح الصدمة قد خيمت على وجهه، لا يعلم ماذا يفعل وكيف يتصرف وينقذ نفسه من هذا المأزق الصعب، لقد وضعته راتيل في موقف لا يحسد عليه.

نظر بيراك إلى ألما فوجد عينيها تنشر لهيب الغضب في المكان، ماذا عساه يفعل أيضحي بالحكم ويضحي بحياته في سبيل إحياء حبه أم يضحي بحبه وفي سبيل الحفاظ على ما وصل إليه من جاه وسلطة ونفوذ!

نظر بيراك إلى راتيل ثم قال:

– أنتِ مين يا ست أنت؟

– أنا مين أيه! أنا راتيل، حبيبتك!

– حبيبتي إيه أنتِ جاية ترمي بلاكِ عليَّ!

– لا قول إنك بتهزر والكلام دا مش بجد.

– أهزر معاكِ ليه! هو أنا أعرفك!

– بيراك أرجوك، بلاش كدا أنا مش بحب الهزار دا.

– اخرسي، واخرجي برا حالا بدل ما أخلي الحراس يرموكِ برا أنتِ وابنك.

– ترميني! أنا راتيل يا بيراك، ودا إلياس ابننا، أنتَ هتتخلى عني؟

شعرت ألما بالضجر منها، وأمرتها أن تخرج من القلعة بهدوء بدلًا من أن تخرجها بالقوة، واتجهت نحوها وأمسكت يدها لتسحبها خارج الغرفة فالتفتت راتيل وصفعتها على وجهها.

لم تستوعب ألما ما حدث؛ كيف تجرؤ تلك الفتاة على صفع صاحبة الجلالة، بيراك لا يزال يقف مكتوف اليدين لا يقوة على فعل شيء، انفجرت ألما في الصراخ حتى اجتمع جند القلعة جميعًا حولها.

أمرتهم أن يقيدوا راتيل ويخرجون بها أمام القلعة في الساحة وينادوا في أهل أكواتيرا ليجتمعوا، حاول بيراك أن يوقف ألما وطلب منها أن تترك له الفتاة وسيتولى هو أمرها، رفضت ألما طلبه رفضًا قاطعًا وأصرت أن تجعل الفتاة عبرة لكل من تصور له نفسه أن يتعدى حدوده مع صاحبة الجلالة.

حاول أن يمتص غضبها، ولكنه استسلم أمام ثورتها وعنادها.

طلب منها أن تكون رحيمة في عقابها وأن تترك الطفل في القلعة إلى أن تُحَاسَب أمه، فما ذنب الرضيع في فعلة أمه.

وافقته ألما وخرجت خلف الجنود بعد أن كبّلوا راتيل من نحرها، وجروها بأغلال من سلاسل حديدية، وخرجوا بها أمام العامة من الناس وهي تبكي هنيهة وتنوح هنيهة وتصرخ هنيهة أخرى.

وقفت ألما على منصة الاحتفالات المنصوبة أمام سور القلعة منذ تولي بيراك الحكم وبجانبها يقف بيراك متخاذلًا.

وأشارت بإصبعها إلى أحد الجنود لينادي في الناس ليجتمعوا، ثم نادت في أهل أكواتيرا:

– يا أهلي وعشيرتي، أنتم عارفين أنا مين؟

ردت الحشود المتجمعة من الناس:

– صاحبة الجلالة ألما بنت الحاكم سهيل للكنعاني.

أكملت ألما:

– تمام، لما تيجي صعلوقة زي دي.

وأشارت إلى راتيل.

– وتتجرأ وترفع يدها على صاحبة الجلالة وتحاول تقتحم القلعة، وترمي بلاها على قائدكم وحاكم الجزيرة كلها وتطلع في الآخر دجالة بنت دجالة يتعمل فيها إيه!

ارتفعت أصوات الناس واختلفت آراؤهم فمنهم من قال..

– لازم تبقى عبرة لغيرها من الحسالة أمثالها.

وآخرين قالوا:

– اجلدوها أو ارجموها بالجمرات.

وبعض آخر قال:

– اذبحوها في الميدان.

أشارت ألما إلى الجميع أن يصمتوا لتكمل حديثها، وقالت:

– أنا علشان عادلة هخلي الحكم زي ما أنتم أمرتوا، ودي هتكون عبرة لأي حد يتجرأ ويحاول يتطاول على العيلة المالكة.

ثم أشارت ألما بسبابتها إلى اليحموم قائد الحرس وطلبت منه تنفيذ الحكم على راتيل.

أمسك بيراك يد ألما أمام الجميع وطلب من اليحموم أن ينتظر، ثم قال لها إن الأمر لا يتطلب تلك القسوة في تطبيق العقوبة.

سحبت ألما يدها من بيراك بعنف وصاحت في اليحموم بقوة لينفذ الحكم.

سحب اليحموم سيفه من جنبه فعلا صليله ولمع تحت ضوء الشمس، تقدم اليحموم وخلفه أصوات الجموع من العامة تشجعه وتهلل فرحة بتنفيذ الحكم في تلك الفتاة ابنة الساحرة الدجالة.

لم يستطع بيراك فعل أي شيء، إذا تدخل واعترف بنسبه لابنه منها فسيعلن خائنًا أمام الملأ وسيطبق عليه الحكم دون الحاجة للخضوع لمحاكمة عسكرية من قبل مجلس القضاة.

استسلم للأمر الواقع وهان عليه حبه، ولأول مرة تخذله شجاعته ويكتم صوت الحق بداخله.

اقترب اليحموم من راتيل فنظرت إلى بيراك نظرة استغاثة وكأنها تناجيه ليخلصها من هذا الكابوس المفزع، ولكن كيف عساه يكفكف دموع قلبها وجناحاه ينزفان كالطير الذي أصابه البارود فظلت الجاذبية تسحبه حتى ارتطم بالأرض وأعضاؤه متناثرة والنزف يبلي ملامحه، فهل هذا أثر الطلق أم إنه أثر السقوط!

ظلت عيناها تلومانه على ما هي فيه، تنتظره أن يأتي ويحلق بها بعيدًا عن قسوة هذا العالم. نظر بيراك إلى الأرض بعد أن أنهكه ضجيج

قلبه ولم يعد يقوى على رؤيتها هكذا، توسلت إليه بدموعها فكان جوابه خزي وسكوت.

ارتفعت أصوات أهل البلدة فرحين بعد أن بجر اليحموم بطنها بسيفه فبرزت أحشائها وفاض سيل دمها على الأرض، ثم انطلقوا صوب جثتها وأخذوا يضعون أيديهم في دمها ويطبعون به على ملابسهم، وتحول مقتل راتيل إلى عيدٍ احتفلوا فيه بتخلصهم من قوى الشر المتحالفة مع الأرواح الشريرة والجن والتي تسخر النبات والرياح لخدمتها.

يظنون أنهم هكذا تخلصوا من السحر الذي كان يخيم على الغابة ويمنعهم من دخولها، لا يدرون أنهم هكذا يحفرون قبورهم بأيديهم، ما ذنب براءة روحها التي انتهكتها قلوبهم القاسية!

ظلت جثتها على الأرض حتى وزع دمها على كل من بأكواتيرا صغيرًا وكبيرًا، وبمجرد أن تشربت الأرض دمها فاح منها رائحة كالعبق تشبه رحيق الورود.

انتشرت تلك الرائحة في الأجواء حتى عمت المكان، ظن الجميع بأنها كانت تحمل خلاصة رحيق النبات في بطنها والآن قد تحررت ففاح عطرها وتخلصت النباتات من سحرها، حملت الرياح تلك الرائحة إلى جالا بالغابة حملتها وانطلقت بسرعة الضوء.

كانت الرياح تنعي راتيل إلى كل من في الغابة من نباتات أثناء رحلتها القصيرة إلى كوخ الأم.

حزنت كل النباتات لفراقها واجتمعوا على أن يوقفوا تمثيلهم الضوئي كعقاب لأهل أكواتيرا، وبهذا تتناقص كميات الأكسجين التي ينتجونها ويحملها الهواء لهم وليغدوا شهيقهم كزفيرهم حتى يختنقوا،

وكعقاب لأنفسهم؛ لأنهم لم يحاولوا منعها أثناء خروجها من الغابة وبهذا يذبلون جميعًا ثم يموتوا كما ماتت راتيل.

ولكن جالا كانت على النقيض تمامًا حين وصل إليها الخبر وأخبرتها الرياح بمراسم احتفال أكواتيرا بمقتل ابنتها.

***

هناك في الساحة يقف بيراك غير مدرك حجم الفاجعة التي صارت، هل عقاب الصفعة الإعدام بأبشع الوسائل هكذا؟ أم إنهم عاقبوها لأنها أحبت! وهل الحب جريمة تستحق العقاب؟

ترك بيراك المنصة ودخل القلعة مسرعًا حيث الغرفة التي تركت فيها راتيل طفلهما، حمل بيراك الطفل وضمه إلى صدره، ثم نظر اليه بعينين يفيض بهما الدمع ثم قال:

– إلياس! اليوم اللي تيجي فيه الدنيا وتشوف أبوك تتحرم من أمك.. كان نفسي تكبر قدام عيني وتتربى في حضني أنا وراتيل وأحكي لك عن بطولاتي وشجاعتي.. يا ترى هتعمل إيه لما تعرف إن أبوك كان سبب موت أمك وإنه جبان وخسيس مش شجاع زي ما كان فاكر! وإنه ما يستاهلش إلا الحرق بعد ما فرط في أكتر قلب حبه وآمن بيه.

دخلت ألما الغرفة فانتفض بيراك، رأته يحمل الرضيع ويحتضنه فقالت بغضب:

– أنتَ واقف عندك بتعمل إيه؟ وشايل الولد ابن الساحرة دا ليه؟ اديه للجنود يدفنوه مع أمه.

– أنا لو كنت فرطت في أمه فمش هفرط في ابني.

– بتقول إيه؟

– زي ما سمعتِ.

– أنتَ اتجننت يا بيراك!

– أنا في كامل قواي العقلية.

– إزاي؟ أنت مش قلت ما تعرفهاش!

– كدبت.

– ليه؟

– علشان جبان

– أنتَ عارف أنا ممكن أعمل فيك إيه؟

– هتطلبي من جنودك يقيدوني؟ هتعدميني؟ ما بقيتش خايف اعملي اللي تعمليه.

– لأ، لأ مش هعمل كدا أنا مسامحاك وهنبتدي من جديد من غير خيانة وكدب من غير ما يدخل تالت بينا.

– أنا ما بحبكيش.

– أنا بحبك.

– بقول لك خونتك، اقتليني، ادبحيني أو شقي بطني زيها.

– لأ، اوعي تقول كدا ما تقولش كدا يا بيراك.. ما حدش هيعرف بخيانتك، وبعدين أنا راضية ومسامحة بس ما تسيبنيش

ما تسيبنيش يا بيراك، أنا أموت من غيرك.

– مش عايزك، مش قادر أعيش معاكِ، مش عايز حكمك ونفوذك، مش عايز حاجة!

– طب ليه؟ اشمعنا هي؟ أنا ناقصني إيه عنها! إيه اللي عندها مش عندي؟

– كانت بتطبطب على وجعي بحضن، كانت بريئة زي الأطفال، أطهر وأنقى من إنها تكون بشرية كانت ملاك.

– أنا ممكن أعوضك، أنا ممكن أعمل دا.

اقتربت ألما منه وربتت على كتفه بيدها فابتعد بيراك عنها ثم قال:

– بلاش تواسيني، طبطبة إيديكِ بقت بتوجع.

***

وقفت جالا في ثبات وكأنها لم تسمع ما قالته لها الرياح، احضرت إناءً معدني ووضعت به بعض الماء الفاتر وثوبًا ناصع البياض به رائحة راتيل، ثم خرجت لتجلب أرنبًا من الأرانب البيضاء الصغيرة التي توجد بجوار بركة الماء.

ولما عادت أحضرت سكين وأمسكت بالأرنب من رقبته وشقتها فانغمر منها الدم.

أخذت منه قطرات وضعتها بالإناء وألقت بالأرنب على الأرض، ثم رفعت يدها ووضعتها أمام وجهها، أطبقت ثلاثة أصابع وأبقت إصبعا السبابة والوسطى منبسطين.

قربت إصبعيها ببطء من وجهها، ثم غمستهما بعينها حتى فقعتها فسال دمها على وجنتيها، ثم مدت يدها بكل ثبات وكأن شيئًا لم يكن ووضعتها على وجهها فامتلأتا بالدم، ثم غمرت يديها في إناء الماء الفاتر فسرعان ما استحال لون ثوب راتيل من الأبيض الناصع إلى الأحمر القاتم.

أخذت جالا تنطق بعض الكلمات غير المفهومة وتحرك الماء الممزوج بالدم في الإناء، وكلما رددت تلك الطلاسم ازداد هبوب الرياح في الغابة حتى إنها كادت تقتلع كوخها من الأرض.

ظل صوت جالا يرتفع بالتعويذات التي ترددها، وتزداد معها قوة الرياح حتى اقتلعت معظم الأشجار والنباتات وتطايرت أوراقها

وتداخلت مع غبار الأرض، حتى إن الرياح اقتلعت رداء التربة الأخضر من أرض الغابة.

كانت الرياح تدور حول الكوخ كالعاصفة تقتلع الأخضر واليابس، هطلت الأمطار فازداد مأساوية المشهد وارتفع صوت الرياح يصاحبه أنين برق السماء ثم هدأ كل شيء فجأة.

استكانت الرياح وأغلقت السماء أبوابها فتوقف المطر واختفى الرعد.

صمت رهيب خيم على الغابة بعد الخراب الذي أحدثته الرياح بها.

جلست جالا في زاوية الكوخ في وضع القرفصاء تحتضن ركبتيها وتردد عبارات غير مفهومة:

«الآن أنتم على موعد مع الجحيم يا أهل أكواتيرا».

***

في القلعة تقف ألما بجوار بيراك دمع عينيها ينهمر كالسيل.

كفكفي دمعك عزيزتي، فقد هان عليه موت محبوبته، من أنتَ ليرق قلبه لك؟ لا يشفع لك رباط الزواج المقدس، الرجال لا دين لقلوبهم.

تتحول قلوبهم إلى حصون يجمعون فيها غنائم شهواتهم وغرائزهم، الرجال قنابل موقوتة وكأن العالم بشع للحد الكافي ليحوي تلك السلالة من جنس المخلوقات.

أثناء محاولات ألما الفاشلة لإقناع بيراك بنسيان الأمر وبدء صفحة جديدة، على الرغم من أنه هو المذنب، ولكن لا عجب في أن تتوسل هي إليه رغم خطيئته.

إنهم معشر الرجال، يستطيعون قلب الطاولة لصالحهم في طرفة عين.

شعرت ألما بألم شديد في أطرافها فوقعت على الأرض ونظرت إلى بيراك فرأته يتكئ على الأريكة تاركًا الطفل من يديه ويحاول التغلب على ألمه هو الآخر.

صرخ الطفل الرضيع لشعوره بالألم، وكأن أحدهم كبل أيديهم وأقدامهم بالحبال وأخذ يشدهم من وثاقهم حتى كاد ينزع أطرافهم من أجسادهم.

أخذت ألما تصرخ هي والصغير من شدة الألم، وباشتداد الألم على بيراك طفح كيله من التغلب وصاح بقوة شديدة.

سمع بيراك أصوات الجنود يصيحون ويصرخون هم الآخرين، وتعالت أصوات العامة من الناس، وكأنه وباء انتشر في البلدة.

تشنج جسد بيراك وألما والطفل، وجميع من بأكواتيرا وكأنهم أصيبوا بصرع وانتابهم صداع شديد أخذ يفتك بأدمغتهم فتكًا.

ازداد دوي صرخاتهم فهربت كل الحيوانات والطيور، فوالله لو أن بشريًّا عاديًّا من بني الإنسان سمع هذا الصوت لأصيب بصمم.

بدأ جسم كل من في البلدة يتمدد وكأنه قطعة من عجين، بدأت أطرافهم في النمو والتمدد إلى أضعاف حجمها وبرزت عضلات وجههم ونمت أجسادهم كليًا حتى صارت أضعاف حجمها الطبيعي.

بعد نوبات الصراخ التي دوت في البلدة بأكملها فقد كل أكواتيري قدرته وسقطوا مغشيًا عليهم، وعمَّ صمت مخيف في كافة أنحاء البلدة.

اختفت أصوات الصراخ وبقت أجسادهم على ما هي عليه بعد أن تمددت وتمزقت ثيابهم التي كانوا يرتدونها، فما عادت تواري حتى عورتهم.

بعد فترة ليست بقليلة بدأ أهل أكواتيرا استعادة وعيهم واحدًا تلو الآخر، بدأ بيراك يحرك عينيه ببطء شديد، ثم وضع يده على رأسه وكانت تؤلمه، وكأن أحدهم طرق عليها بمطرقة حديدية، بدأ يتأوه ثم حاول النهوض متكئًا على الأريكة.

بدأ ينظر إلى جسده وأطرافه، أصابه الذهول وكأن أحدهم صدمه بصاعق كهربائي، أخذ ينظر إلى يده وقدمه ولا يصدق ما حدث له!

لم يجد على جسده أيَّة ثياب، فقد انشقت ثيابه حين تمدد جسده، أخذ يلملم ما تبقى من ثيابه المشقوقة ويضعها على جسده.

وجد ألما ملقية على الأرض وقد تمدد جسدها هي الأخرى وردائها مشقوق لا يواري عورتها.

انتفض بيراك وقام لينزع الفرش من على الأريكة ليستر به ألما فصعق حين رأى طفله قد تمدد جسده هو الآخر؛ حيث أصبح الرضيع في حجم الرجل البالغ، لكنه لا يزال رضيعًا بملامح طفولية.

لا يعلم بيراك ما الذي أصابه هو وعائلته، ترك ألما والرضيع وصعد مسرعًا إلى الطابق العلوي ليحضر ثيابًا يستر بها نفسه.

فوجئ بابنته ملقية على الأرض وقد أصابها ما أصابه.

حاول تجميع قواه المشتتة وحملها إلى الغرفة حيث أمها وأخيها، صعد بيراك إلى غرفة نومه ولم يجد أي شيء يرتديه، كل ملابسه أصبحت ضئيلة جدًا لا تصلح حتى لطفله الرضيع.

نزع ملاءة السرير وقام بربطها حول خصره وظا صدره عاريًا.

همَّ بالخروج من الغرفة فسمع صوت أنين قريب، اتجه صوب الصوت بسرعة فوجد جنوده قد استعادوا وعيهم ولكنهم لا يزالوا ملقون على الأرض بعد أن خرت قواهم.

كاد الجنون يصيبه، ماذا حدث! وكيف تحول الجميع إلى وحوش هكذا!

خطر بباله جالا وسحرها؛ فأيقن أنها قد وصلتها أنباء مقتل راتيل وكل ما يحدث له الآن من هو ثأر جالا لراتيل.

نزل مسرعًا واتجه إلى الإسطبل ليحضر فرسًا يذهب به إلى الغابة، فوجئ بأن كل الجياد قد هربت ولم يجد في اصطبله أي فرس.

قرر أن يذهب إليها ولو حبوًا، خرج بيراك من القلعة متجهًا إلى الغابة.

أخذ يجري حينًا ويلهث حينًا من شدة ما أصابه، صعق بمنظر العامة من أهل أكواتيرا وهم ملقون على الأرض، البعض منهم لا يزال فاقد الوعي، والبعض الآخر على وشك استعادة وعيه، جميعهم تحولوا إلى مسوخ عرايا.

صارت المنازل ضئيلة جدًا، الطرقات ضيقة، اختفت خضرة الأرض وكأن ملك الموت سلب روحها ولم يبق منها سوى الرفات، جرداء تربتها بور بلا أي حياة.

علم بيراك أن تلك ستكون أحقابًا عجافًا، ظل يتابع طريقه حتى وصل إلى جنوب أكواتيرا.

لم يبق إذن سوى أن يغزو الغابة ليصل إلى كوخ جالا، أخذ يجري في الغابة بلا وجهة، تشققت قدماه من الصخور الحادة وأخذت تنزف حتى أوشك النزف يبليه، شعر بدوارٍ كاد يشق رأسه، جلس يلتقط أنفاسه وحاول الاعتماد على بقايا خبرته بالأعشاب.

كل ما يريده هو إيقاف النزيف قبل أن ينفذ مخزون جسده من الدماء، بدأ ينظر حوله يمنى ويسرى حتى وقع نظره على عشبة النيم، أخذ يبحث عن شيء يتكئ عليه حتى يصل إلى تلك النبتة فلم يجد.

لم يجد بدًّا سوى بالسير على قدمه المذبوحة، أخذ يخطو كما لو أنه كافر يعبر الصراط، تؤلمه قدماه كأنه يسير على جمر.

بالكاد استطاع أن يصل إلى هذه العشبة، مد يده يقتطفها فوجدها متصلبة كالفولاذ، حاول انتزاعها فلم يقدر، تلك النبتة حجمها صفر على يسار المليون مقارنة بحجمه، أي جذور تثبتها في جوف الأرض بتلك الصلابة!

لم ييأس من تكرار المحاولة، ولكن دون أي جدوى.

لم تكن تلك النبتة وحدها المتصلبة، بل إن كل النباتات التي كان يلمسها بيراك تنتصب وتصير كالصلب، وبمجرد أن يرفع يده عنها تعود لهيئتها المعتادة، حتى. أوراق الشجر. تعجب بيراك من هذا، وأحس أنه يُعاقب على ذنب يعلمه جيدًا، ولكن لا توجد وسيلة للغفران.

تنهد بيراك واستسلم لكل ما حل به من أذى، يعلم جيدًا أنه يستحق هذا العقاب؛ وهل هناك جزاء للظلم إلا الظلم!

تابع بيراك سيره بقدم تحتضن الألم احتضانًا تاركة خلفها سيلًا من الدماء يروي عطش الأرض.

وصل إلى الكوخ بعد مشقة، صار حجم الكوخ صغيرًا، بالكاد يصل طوله إلى صدره، طرق سطح الكوخ لتخرج إليه جالا فلم تخرج، طرقه ثانية وانتظر أن تجيبه فلم تجب.

قرر أن يقتلع سقف هذا الكوخ المهترئ، فأمسك بطرفيه الخشبيان وكشف عن أنيابه ثم انتزعه من مكانه فلم يعد هناك شيءٌ متواريٌ، وجد جالا تجلس القرفصاء في الزاوية أخذ يصيح فيها فلم تجبه، انتشلها من ثيابها بكلتا يديه ثم أخرجها من الكوخ.

كانت لا تزال بهيئتها البشرية، فلم يتمدد جسدها ولم تتحول لمسخ كما تحول الجميع، ارتجفت يداه عندما نظر إليها ووجد عينيها

مفقوعتين والدماء على وجنتيها لم تجف... وضعها على الارض ثم جلس، جلست القرفصاء ثانية فصاح فيها قائلًا:

– أنتِ عملتِ إيه؟ أنا بقيت كدا إزاي؟ ردي عليَّ بدل ما أقتلك.

أجابته بكل هدوء غير مبالية لما قاله:

– انتقمت لبنتي.

– عايزة تنتقمي يبقى تنتقمي مني أنا، الناس ذنبها إيه؟

– فرحوا.

– تنتقمي منهم علشان فرحوا؟

– علشان فرحوا في موتها وخلوه عيد، ووزعوا دمها كأنه وليمة وكل واحد عايز يلحق منابه.

– رجعي كل حاجة زي ما كانت وأنا قدامك اعملي فيَّ اللي أنتَ عيزاه، اقتليني لو دا هيريحك.

ضحكت بسخرية ثم اتبعت قائلة:

– أقتلك! لا أنا مش رحيمة للدرجة دي، لو مت هترتاح، أنا عيزاك تتعذب، تتمنى الموت في كل لحظة وما تطولوش.

تنهد بيراك ثم قال:

– طب أنا موافق، رجعي كل حاجة زي ما كانت وأنا مستعد لأي عقاب.

– كل حاجة هترجع زي ما كانت، كل حاجة هترجع ما تستعجلش.

– هترجع؟ امتي؟

– لما دمك يتوزع على كل أكواتيري، لما يفرحوا ويهللوا لموتك علشان وقتها بس اللعنة هتحل عنهم.

– لعنة؟ لعنة إيه؟

ابتسمت ابتسامة صفراء ثم أجابته بصوت يشبه فحيح الأفاعي:

– جونداس، نهر جونداس.

استوطنت ملامح الخوف والحيرة وجه بيراك ثم قال:

– جونداس! ماله النهر؟

– مصدر المايه الوحيد، النهر اللي كل شبر في أكواتيرا بيتروي منه بما فيهم الغابة دي، أي حد هيشرب منه هيموت وأي حد هياكل من الغابة دي هيموت.

– سممتي الميا؟

– منا قلت لك أنا مش رحيمة للدرجة دي، لو سممت المايه أي حد يشرب منها هيموت فورًا، إنما أنا لعنتها، اللي يشرب منه يدوق الويل لمدة سنة، يفضل يتعذب 60 يوم وفي الليلة الأخيرة من السنة روحه هتدب في الغابة يموت جسمه وتتولد نبتة جديدة بروحه ويعيش للأبد روح إنسان ساكنة نبات لحد ما يتقطف أو يدبل.

– ما حدش هيشرب، أنا هقول لهم وهحذرهم.

ضحكت جالا بصوت عالٍ، ثم اردفت قائلة:

– لو ما ماتوش من اللعنة هيموتوا من العطش.

– طب، طب أنتِ ليه خليتِنا بالأجسام دي؟

– مانا قلت لك مصدر المايه الوحيد اتلعن، ولو لقيتوا مصدر تاني هتبقى المايه فيه قليلة، يبقى لازم جسمكوا يكبر واحتياجكوا للميا يزيد وتدوقوا الذل أضعاف. دا غير إن زي ما شفت كدا وأنت جاي أكواتيرا كلها بقت صحراء، وكل الزرع مات والحيوانات اللي بتربوها هربت. ما فيش أي مصدر غذاء إلا في الغابة اللي لو أي حد أكل أي ثمرة منها هتصيبه اللعنة، هيفكر يهرب؟ يهرب.. مش هيعرف. ما فيش مخرج،

اتعزلتوا عن المداين التلاتة، سور نباتي محاوط أكواتيرا، هو نبات بس أقوى من الفولاذ، ما حدش يقدر يعديه وما حدش يقدر يهده. يعني ما حدش يقدر يدخل أو يخرج من أكواتيرا مهما حصل.

غضب بيراك، ثم أمسكها من رقبتها وصاح فيها قائلا:

– ما فيش أي حاجة هتمنعني أقتلك.

أجابته:

– ما فيش أي حاجة أعيش علشانها، ولو في حد لازم يموت فهو أنت.

أصيب بيراك بنوبة غضب عارمة جعلت دمائه تغلي كادت عروقه البارزة تشق انسجته.

أمسك بيراك جالا من رقبتها بيد وأمسك رأسها بالأخرى، ثم أخذ نفسًا عميقًا وانتزع راسها من بين كتفيها.

تقطعت أوصالها، وتناثر دمها علي وجهه وصدره العاري ويداه، نظر إلى منظر جسدها الذي جار عليه الزمن ورأسها السابح في الدماء.

أخذ يرجع بظهره للخلف ومقلتاه مثبتتان على وجه تلك العجوز الذي احتلته التجاعيد، أصابته ابتسامة وجهها التي يكسوها الدم بالهلع.

نظر ثانية إلى يده الملطخة بالدماء وأخذ يصرخ صراخًا عنيفًا أوشك يمزق أحباله الصوتية.

حاول إشاحة نظره عنها، التفت وأخذ يركض بأقصى سرعة، يركض ويقع ويقف ويعاود الركض ويتعثّر ويقع ويقف ويعاود الركض، هكذا هو الحال إلى أن وصل إلى أكواتيرا.

استحالت الأرض التي كان يسير عليها من أرض خضراء حشائش تربتها توغز كالإبر إلى أرض رملية رمالها جافة ساخنة.

تخللت رمال الأرض تلك الشقوق والجروح في قدمه

كلما تقدم في السير سمع صوت عويل يدوي من كافة أنحاء البلدة، تابع سيره لا يأبه لهذا الصراخ إلى أن وصل إلى الساحة أمام القلعة.

أناس يجرون هنا، وأناس يصرخون هنا، وأناس يزملون أنفسهم ببقايا ثيابهم المشقوقة، وأناس مسطحون أرضًا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم.

اندفع بيراك إلى القلعة، الأمر سيان سواء كان في القلعة أو خارجها؛ جنود يركضون باحثين عن شيء يسترون به عورتهم، أصوات مرتفعة وصياح، أنين جنود تحاول استعادة وعيها، أثاث يبدو صغيرًا جدًا مقارنة بذي قبل، اتجه إلى غرفة الاستقبال حيث ترك ألما وصغيريه، وجد الصغيرين ما زالا منبطحين أرضًا، وألما مسطحة كما هي ينبع منها أنين خافت.

لم تؤلمه تلك الندوب في قدمه قدر ما آلمه هذا المنظر، انطلق نحوها وخر جانبها ثم رفع رأسها عن الأرض وأسندها إلى صدره، بدأت ألما تستعيد وعيها تدريجيًّا.

فتحت عينيها، فوجدت بيراك يحتضنها ووجهه ملطخ بالدماء، انتفض جسدها من الخوف ثم دفعته بعيدًا عنها.

أخذت تنظر إلى هيئته المروعة وجسده العملاق، ثم نظرت إلى يدها وجسدها العاري المغطى بقطع قماش مهترئة.

ظلت تحملق إلى جسدها الجميل الرقيق الفاتن الذي تحول إلى كتلة لحم ضخمة، تلك السيدة الثلاثينية ذات العيون الزرقاء والبشرة

ذات لون بلورات الثلج، ذات الجسد صارخ الأنوثة، تلك الجميلة ذات النهدين الكواعب والقوام الممشوق أصبحت مسخًا، أنثى بجسد وحش.

أخذت تصرخ وتصفع وجهها فأمسك بيراك يدها لتكف عن هذا ثم عانقها، أخذت تبكي وتنوح وبيراك يحاول أن يهدأ من روعها ويكفكف دمعها.

ابتعدت عنه ثم قالت له:

– بلاش تواسيني، طبطبة إيديك بقت بتوجع.

نظر إليها بيراك باستحياء ثم قال:

– أنا آسف، كل اللي حصل دا بسببي، أنا عارف إنك مش طايقة تبصي في وشي، عارف برده إني ماستاهلش حبك ليَّ وعارف كام مرة جيتِ على نفسك علشاني، عارف كمان كام مرة نمتِ وكاتمة في قلبك كلام وبكا يساع الأرض، عارف إني واحد مقرف وما قدرتش أي حاجة عملتِها علشاني، وعارف إني مهما كنت أعمل كنتِ هتستحملي.. بس عارفة أنتِ الغلطانة، عارفة ليه؟ علشان أنتِ اللي عودتِني على كدا، أنتَ اللي مأخدتيش موقف من البداية وحطيتِ حد، أنتِ اللي سيبتيني اتمادى تحت مسمى بكرة يرجع زي الاول، أنتَ اللي دايما ساكتة مهما غلطت في حقك، يا ريتك كنتِ سبتِني، يا ريتك جيتِ على قلبك وما حبتنيش.

نظرت إليه ألما باشمئزاز وقالت:

– خلصت؟ أنا معاك في كل حاجة قلتها، أكتر حاجة عايزة أأكد فيها على كلامك هي إنك حقيقي ما تستاهلش.

– أنا مش هلومك على أي حاجة، أنا عارف إن غلطتي ما تتغفرش، بس ما كنتش متخيل إن يوم ما أغلط يبقى العقاب موتي.

– موتك؟

– أيوة.

– موتك إزاي؟

بدأ بيراك يقص لألما ما حدث وما قالته له تلك المشعوذة الشمطاء، أخبرها عن اللعنة وعما يجب فعله كي يتمكنوا من حل تلك اللعنة.

أثناء حديثهما كان اليحموم قائد حرس بيراك يقف جوار باب الغرفة من الخارج يسترق السمع.

علم اليحموم حينها عن اللعنة، وعلم أن حياته وحياة كل أكواتيري على المحك ما لم يفك تلك اللعنة بقتل بيراك.

لم يوشك بيراك على إنهاء حديثه مع ألما إلا وقد سمعا صوت أنين ابنتهما محاولة استعادة وعيها، اندفع بيراك وألما نحوها فأصبح ظهريهما للباب، وما إن جلسوا جوار الطفلة إلا وباليحموم يتسلل داخل الغرفة يمسك بيده سيفه الذي أصبح صغيرًا نسبيًا مقارنة بحجمه الآن.

أخذ يتقدم ببطء، أوشك سيفه أن ينغمس في رقبة بيراك، رفع السيف استعدادًا لينقض عليه، فصرخت الطفلة بمجرد أن رأته، التفت بيراك مسرعًا وعرقلة فوقع على ظهره وانزلق السيف من يده صوب باب الغرفة.

لم يفسح اليحموم الفرصة لبيراك كي يلتقط السيف ويقتله، فصاح بصوته إلى جنوده، ارتبك بيراك وخرج يجري مسرعًا متجهًا إلى الباب الخلفي الذي يطل على الباحة؛ محاولًا الهرب قبل أن يمسكه الجنود ويقتلونه.

استطاع الفرار من القلعة، لا يزال يهرول بلا وجهة لا يعلم أين يذهب، لا مهرب من هذا السجن الكبير، أي عقاب هذا بحق عدالة السماء!

***

في القلعة.. يقف اليحموم أمام ألما التي تجلس على الأرض محتضنة صغيرتها.

– اللي حصل لنا دا كله بسبب جوزك وخيانته، لازم يموت.

– أنتَ نسيت نفسك ولا إيه! أنتَ يا دوب قائد حرس بيراك، بكلمة منه يدفنك مكانك.

– لأ، دا كان زمان، قبل ما أبقى حاكم أكواتيرا.

– نعم، أنتَ حاكم أكواتيرا؟ امتى دا!

– دلوقتي.

ثم رفع سيفه وشق به أوصال رقبتها فانهمر شلال الدم أغرق طفلتها، نظر اليحموم إلى الطفلة ثم قال:

– عايزة تصرخي وتحصلي ماما ولا تسكتي خالص وأجيب لك حاجة حلوة؟

أجابته الطفلة بصوت مكتوم:

– مش عايزة أحصل ماما.

ابتسم اليحموم بلؤم ثم قال للصغيرة:

– يبقى تسمعي اللي هقوله وتنفذيه بالحرف.

أجابته بخضوع وهوان:

– حاضر.

نادى اليحموم جنوده وأمرهم أن يجمعوا أكبر قدر من الناس في الساحة لأمر مهم لا يحتمل التأخير.

خرج اليحموم إلى الساحة ممسكًا يد الطفلة وخلفه جندي يحمل الرضيع، ثم نادى في الناس؛ اجتمع الأكواتيريون على وجوههم الكثير من علامات الاستفهام والتعجب.

خاطبهم اليحموم بكل خبث، ثم أخبرهم أن الصغيرة ابنة بيراك وألما تود إخبارهما شيئًا.

تقف الطفلة لا تقتصر الرجفة على يديها فقط، بل إن قلبها يرجف هو الآخر.

أمرها اليحموم بأن تتحدث، ثم نظر إليها نظرة بثت الرعب في قلبها فنطقت بالكاد خرج صوتها من فمها، همس في أذنها وطلب منها أن ترفع صوتها وإلا ذبحها أمام تلك الجموع.

حاولت أن تتحكم في نبرة صوتها، ولكنها لم تكن بتلك الشجاعة، خرج صوتها نحيب تنعي بنبرة مهزوزة أمها التي قتلها أبوها بيراك قبل أن يهرب، بعد أن أصاب أكواتيرا وكل من فيها باللعنة، وها هي الآن ولية العهد حاكمة أكواتيرا تولي اليحموم الحكم بدلًا منها.

ارتفعت أصوات الثائرين من الناس فصاح فيهم اليحموم وطلب منهم أن يصمتوا جميعًا، ثم أخبرهم بما سمع أثناء حديث بيراك مع ألما.

الآن بعد أن أصابتهم لعنة، وجميعهم يعلمون كيف تنحل تلك اللعنة؛ لم يبق سوى البحث عن بيراك وقتله حتى تنزاح عنهم تلك الغمة.

الآن بعد أن أصبحت أكواتيرا سجنًا لأهلها لا يستطيع أحد الدخول أو الخروج منها، لن يجد بيراك مخبئًا يمكث به طويلًا مما يضيق نطاق البحث ويسهل عملية إيجاده.

وليس هذا فقط، بل نوه اليحموم عن مكافأة لمن يأتي برأس بيراك أولًا.

انفض الجمع وعاد اليحموم للقلعة معه الطفلين، نظر إلى الصغيرة، ثم قال لها:

– أنتِ نفذتِ اللي قلت لك عليه، وأنا مش هدبحك زي ما وعدتك، كل اللي هتعمليه تاخدي أخوكِ وتطلعي برا القلعة، واوعي تيجي هنا تاني وإلا هدبحك زي ما دبحت أمك.

نظرت إليه الصغيرة بعينين يشوبهما الكره، ثم همت بالخروج فأوقفها اليحموم وطلب منها أن تنتظر حتى يأتي جندي معها يوصلها إلى الخارج هي والرضيع.. يا لكرم أخلاق هذا الوغد!

اصطحب الصغيرة جندي يشبه المتسولين، يبتسم ابتسامة صفراء فتفوح رائحة كالقبر من فمه مع أسنان يشيح السوس بها.

أوصلها إلى الساحة، ثم انصرف وتركها هي والرضيع الذي رغم تمدد جسدها لا تقوى على حمله.

ظلت الصغيرة جالسة إلى جوار أخيها بائسة وكأن العالم أطفأ سيجارة في قلبها، تضج الساحة بالحركة هنا وهناك؛ من يبحث عن بيراك ومن يخبئ ما تبقى في حوذته من ماء وبعض الثمار الضئيلة جدًا التي لن تسد جوع تلك الأفواه العملاقة.

وبعض آخر يبحث عن أحطاب وخوص يقيمون بها خيامًا مؤقتة حتى يعود حجمهم إلى طبيعته؛ ليتمكنوا من الإيواء إلى منازلهم من جديد.

عادت الشمس أدراجها واحتضن القمر السماء، هدأت الحركة وبدأ الأكواتيريون يتساقطون في خيامهم من شدة الإرهاق.

اختفت أصوات الأقدام وصياح العامة، وأصبح الصمت سيد الموقف، وهذان الصغيران ما زالا مشردين بلا مأوى.

تستوطن عتمة اليل ظلام قلبيهما، وكأنه سواد يلطخ سواد، مر عليهما رجل أربعيني أقرع، ذو بشرة سمراء لونها، عار الصدر تستر عورته قطعة قماش بيضاء، يبدو عليه أنه تعاطف معهما وأحزنه حالهما، وهما مسطحان أرضًا بلا ثياب تذكر، مجرد قطع قماشية صغيرة تستر أجزاء قليلة من جسد الفتاة.

وقف الرجل أمامها، ثم أخذ يخاطبها:

– أنتِ قاعدة هنا ليه؟

أجابته الصغيرة:

– أمَّال أقعد فين؟

– مش قصدي، أقصد يعني فين أهلك؟

– ماتوا.

– مش فاضل منهم إيه حد؟

– فاضل أخويا دا.

– طب وبيتكوا فين؟

– مش عندنا بيت.

– أمَّال كنت عايشة فين قبل اللعنة ما تصيب البلد؟

صمتت الطفلة ولم تجبه، أخذ يكرر سؤاله ولم يجد أيّ إجابة تريح فضوله.

رق قلبه لهذين الصغيرين فقرر أن يصحبهما.

– أنتِ شكلك غريبة ومش عارفة حاجة هنا، أنا عندي ابن في نفس سنك، اسمه عريق.. والدته ماتت من سنتين وعايش أنا وهو لوحدنا،

هيفرح أوي لو جيتوا وعيشتوا معانا، صحيح البيت مش هيساعنا حاليًا بس أنا نصبت خيمة كبيرة هتساعنا كلنا لحد ما نرجع زي ما كنا، ها؟ هتيجي معايا؟

***

حياة من بعد موت

اتسعت حدقتا عين حازم وهو يستمع إلى ميرال، جف حلقه من غرابة ما تقول.

نظرت إليه ميرال متعجبة من ملامح الاندهاش التي خيمت على وجهه، فصمتت هنيهة ثم قالت له:

– أنتَ بتبص لي كدا ليه؟

– مستغرب.

– من إيه؟

– الحكاية، زي الحواديت بالظبط.

– قصدك زي الكوابيس.

– طب ما علينا وبعدين إيه اللي حصل للطفلين دول كملي.

– وبعدين يا سيدي أخدهم الراجل الطيب وفضلوا عايشين معاه هو وابنه لحد ما تمت البنت 136 سنة، بعدها الراجل دا مات فما كانش ينفع تفضل عايشة مع ابنه، فاضطرت تشتغل في أي حاجة علشان تقدر تبني بيت ليها هي وأخوها وتقدر تعيش، لحد ما في يوم اليحموم حاكم البلد الظالم فرض قوانين تجنيد إجباري على كل شاب بالغ، ولسوء الحظ أخوها يتجند ويتاخد من حضنها.

– طب والبنت دي حصل لها إيه بعد كدا؟

– قابلت شاب تايه قال إيه جاي من عالم تاني وجه قلب لها حياتها زيادة.

– أنتِ قصدك إن أنتِ...!

– أيوة، أنا ميرال البنت اللي أمها اتقتلت قدام عينها واتطردت من بيتها وضاع منها كل حاجة.

– وإلياس يبقى أخوكِ!

– بالظبط، بس وقتها أنا ما كنتش أعرف إنه اسمه إلياس، ولما أبو عريق سألني عن اسمه قلت له ماعرفش فسماه ساهر، وعرفت بقى من الناس اللي كانوا موجودين لحظة إعدام راتيل إنه اسمه كان إلياس.

نظر حازم إلى ميرال بحزن ثم قال:

– أنا قبل ما آجي هنا كنت فاكر إني أكتر إنسان منحوس في الدنيا، يعني عندي فلوس كتير وعندي كل اللي بتمناه بس مع كل دا ما عرفتش أشتري النجاح ولا الحب.

– أنتَ مشاكلك وهمومك دي كلها بالنسبة ليَّ قمة الترفيه.

– حقيقي اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته.

امتعض وجه ميرال، ثم ثقبته بنظرة غاضبة وقالت:

– أنا ما بحبش الشفقة، ما بحبش أصعب على حد.

– لأ لأ.. أنا مش مشفق عليكِ ومش صعبانة عليَّ والله، أنا بس...

– مش صعبانة عليك؟

– لأ قصدي أنتِ صعبانة عليَّ بس أصل...

– يعني بتقول صعبانة عليك؟

– لأ والله بس هو الموضوع إن...

– ششششششت أنا لازم أروح أنام عندي شغل كتير بكرة.

ثم همت ميرال بالوقوف استعدادا للمغادرة فأوقفها حازم قائلا:

– طب لحظة استني أنا لسه فيه حاجات كتير مش فاهمها، ممكن بس تفهميني علشان الأوفرثينكينج مش راحمني؟

– الأوفر إيه؟

– قصدي التفكير.

– وحاجات إيه اللي بتفكر فيها؟

– أنتَ قلتِ إن كل المايه في أكواتيرا ملعونة صح، وكل الأكل ملعون برده، طب أنتم بتاكلوا وتشربوا منين؟

نظرت إليه ميرال بطرف عينها ثم جلست بموضعها.

استنشقت شهيقها تأهبًا للإجابة على سؤاله ثم قالت:

– أولًا أنا ما قلتش إن أكواتيرا المايه فيها ملعونة، ثانيًا ما قلتش إن الأكل ملعون.

– بس أنتِ قلت إن جالا قالت...

قاطعته قبل أن يكمل:

– جالا قالت النهر اللي بيحيط بجزيرة بيروت كلها اللي أكواتيرا أكبر مدينة فيها ملعون، والنهر دا مصدر المايه الوحيد اللي كنا عايشين عليه يعني كدا الزراعة اتضربت، ومن هنا الأكل كمان هيقل يعني ما قدمناش غير الغابة اللي كل ما فيها ملعون واللي جلالتك أكلت من ثمارها.

– معنى كلامك إن كل مداين الجزيرة المحيطة اتصابت بلعنة النهر؟

– لا أكواتيرا بس.

– إزاي وهما برده بيستخدموا المايه من نفس النهر؟

– اللعنة اتفرضت على أهل اكواتيرا بس، أي مدينة غيرها بتمارس حياتها بشكل عادي؛ أغاريد وتيجان والرملة بيمثلوا تلتين مساحة بيروب، وأكواتيرا بتحتل التلت الجنوبي، هي أكبر مدينة فيهم، وكل مصالح المداين التلاتة قايمة على أكواتيرا.. كتير من أهل أكواتير حاول يتخطى الحاجز النباتي علشان يهرب لأي مدينة منهم زي ما أنا متأكدة إن أهل المداين دي حاولوا يخترقوا الحاجز وفشلوا.

– كلام جميل، بس كل دا مش إجابة على سؤالي أنا لسه ما فهمتش أنتم بتاكلوا وتشربوا منين؟

– المطر.

– مطر؟

– أيوة، إحنا السنة عندنا عبارة عن 60 يوم، نص السنة الأول شتاء والنص التاني صيف.

– بس ما فيش مطر في الصيف بتعيشوا منين في نص السنة الصيفي؟

– اليحموم بعدما أمر الناس يدوروا على بيراك.

قاطعها حازم:

– أبوكِ؟

ثقبته ميرال بنظرة حادة ثم اتبعت قائلة:

– بيراك.

– ماله؟

– الناس فضلوا يدوروا عليه في كل أكواتيرا وما حدش لاقاه، لحد ما يأسوا إنهم يوصلوا له، بس اليحموم ما يأسش وأمر 3 من أشجع

الجنود إنهم يدخلوا يدوروا عليه في الغابة وما يرجعوش غير برأسه.

– ولقوه؟

– ما حدش لاقاهم.

– ما حدش لاقى مين؟

– الجنود من وقت ما دخلوا الغابة ما خرجوش، ومن بعدها الجنود خافوا يغامروا ويدخلوا ما يرجعوش زي زمايلهم.

– دا معناه إن بيراك لو في الغابة كان مات زيهم، طب هيكون فين لو مش في الغابة؟

– أنا ماعرفش.

– وبعدين كملي.

– بعد ما الإحباط سيطر على كل الأكواتيريين قرروا إنهم مش هيستسلموا وهيعيشوا رغم اللعنة.

بعدها اليحموم طبق التجنيد الإجباري على كل شاب بالغ، وبقوا الجند بعد ما كانت كل مسؤوليتهم حماية أمن البلد بقوا عبيد بيسخرهم اليحموم علشان يشقوا ترع ويحفروا قنوات ويبنوا قناطر ويزرعوا في أماكن الترسيب.

ويصنعوا مظلات عقيق متحركة تغطي الشقوق والترع في الصيف علشان المايه ما تتبخرش، ولو اتبخر منها جزء يتكثف ويرجع تاني وبكدا يحتفظوا بأكبر كمية ممكنة.. ويا ريت بعد كل دا بناخد من المايه دي حاجة.

– أمال مين اللي بياخد؟

– الترع دي منشآت عسكرية أي حد يفكر يهوب ناحيتها بيتدبح ويبقى عبرة، أما اللي عايز مايه بطريقة شرعية وقانونية يشتغل ويتعب.

– يعني بتشتغلوا علشان بس تشتروا مايه؟

– بنشتغل علشان نقبض مايه.

– تقبضوا؟

– أيوة الأجور من بعد اللعنة اتحولت من عملات دهب وفضة لجوالين.

– جوالين؟

– آه، أجرك في أكواتيرا جالون مايه اشتغلت يوم تقبض جالون، يكفي احتياجات فرد واحد مدة ٣ أيام ويكفي عيلة لمدة يوم.

الكل هنا بيشتغل والأجر ثابت للجميع بس برده هتلاقي غني وفقير.

الغني عايش بطوله وبيوفر في استهلاك المايه اللي قبضها، والفقير دايمًا هتلاقي عنده عيال كتير واستهلاكه كتير، ويجوز كمان يشتغل في حرفتين وبرده ما يقدرش يكفي حاجة بيته.. الناصح هنا هو اللي بيحوش.

– يحوش مايه؟

– أمال يعني هيحوش إيه!

– يعني بتاكلوا في اطباق دهب وتشربوا في كوبايات فضة وحياتكم بدائية كدا! عايشين بس علشان تاكلوا وتشربوا!

– صدقني الدهب والفضة والزبرجد والياقوت وغيرهم كتير ما يساووش حاجة قدام منظر طفل بيموت قدامك من الجوع والعطش، أو قدام رضيع بيتفطم بعد يومين من ولادته علشان صدر أمه ناشف من الجوع ما فيهوش لبن.. العمال اللي بيحفروا بيبقوا في قمة سعادتهم لما يلاقوا مايه في بطن الأرض مش لما يلاقوا دهب ومعادن.

ذهل حازم من كلام ميرال كيف لبلد أن تكون قائمة على المياه؟

مشربهم الماء ومأكلهم الماء وحتى عملة تلك البلد ماء!

سألها وملامح الدهشة لا تزال تخلل ملامحه:

– يعني أنتم عندكم الغني مش اللي راكب عربية سبور ولابس جزمة ماركة وساعة من براند عالمي، الغني اللي عنده ميا كتير، صح؟

– رغم إني ما فهمتش نص كلامك بس صح.

– طب وأنتِ بتجيبي مايه منين؟ والناس هنا بتشتغل إيه؟

– علشان أجيب مايه يبقى لازم أشتغل، وأنا بشتغل في الخياطة، الناس بتيجي لي أفصل لهم هدوم يلبسوها، الناس هنا بتشقى وبتتعب وهدومهم بتدوب بسرعة.

– طب وبتجيبي قماش منين؟

– بتعامل مع مزارعين بيجيبولي حرير وكتان بفصل بيه اللبس.

– والمزارعين بيجيبوا القماش دا منين؟

– في دود في مزارعهم بنتج الحرير والكتان بيزرعوه مع باقي المحاصيل.

– طب وجابوا بذور المحاصيل منين؟ على حد علمي إن كل الأشجار دبلت وماتت لما اللعنة صابتكم.

– كلامك مظبوط.. كل الأشجار المزروعة والمحاصيل اللي في الأرض تلفت، بس الفواكه والخضرا اللي كانت في بيوت الأكواتيريين ما دبلتش، كل واحد كان عنده نوع معين من الفاكهة أو الخضار كان بيروح جري يوديه لليحموم وقدروا يزرعوا محاصيل من أنوية الثمار دي، حظهم إن اللعنة كانت في النص الأول من السنة يعني في الشتا وإلا كانوا ماتوا من العطش.

– دا معناه إن أكلكم كله نباتي صح؟

– لا بناكل لحوم أحيانا.

– لحوم إيه هي مش كل الحيوانات والطيور هربت؟

– مظبوط، بس في موسم في السنة بتهاجر فيه الطيور على شكل اسراب كبيرة جدا وبيطيروا فوق الجزيرة بيطلع صيادين يصطادوا نصهم وبيتوزعوا بالتساوي على الأكواتيريين.

– طب ولي مش بيصطادوهم كلهم؟

– علشان لما الطيور الباقية اللي الصيادين مصطادوهاش قصدا بتروح المكان اللي مهاجرة ليه بتتكاثر وترجع تاني في رحلة العودة وبتمر من نفس المكان زي ما تكون حافظة طريقها، نقوم إحنا نصطاد النص برده وهكذا، بمعنى إن لو اصطادناهم كلهم مش هنلاقي طيور تانية نصطادها.

– طب والبيوت؟

– مالها؟

– مش مفروض إن لما اتلعنتوا حجمكم كبر عليها، بس اللي أنا شايفه إن حجم البيوت مناسب جدا!

– فعلًا حجمها مناسب لأن مش دي البيوت اللي كانت موجودة أول ما اللعنة صابتنا، الناس فضلت فترة طويل عايشة في خيام عملوها من قماش هدومهم اللي كانوا بيلبسوها قبل اللعنة، الناس جاعت وكتير منهم مات، كل اللي عايشين دلوقتي هما الناس اللي شقت وتعبت وماستسلمتش، الناس اللي عافرت علشان تعيش، وبعد ما اتأقلمنا على الوضع وبقى فيه مخزون مايه وبقى فيه زراعة، بقوا المزارعين يقطعوا خشب أشجار الزان ويبيعوه لعمال يحولوه ألواح يتصنع منها الأثاث اللي بنستخدمه، أما البيوت فبيبنوها بحصى وحجارة وطين.

– بيوت طين؟

– أيوة، إحساس حلو إن الإنسان يكون عايش في بيت مصنوع من نفس المادة اللي اتخلق منها.

– طب لما حد بيتعب أو بيمرض يعني بتعالجوه إزاي من غير أدوية؟ ولا عندكوا هنا صيادلة كمان؟

– صيادلة؟

– آه الدكتور اللي بيعمل تركيبات الدواء للي بيكون عيان وبيبيعها للعيانين على حسب مرضهم.

– معنى كدا إن كل الأكواتيريين صيادلة!

– يعني إيه مش فاهم؟

– يعني زي ما بيتزرع خضار وفاكهة بيتزرع أعشاب تعالج المريض وتداوي المجروح، يعني مثلا زي التوم والنعناع والبصل والريحان والحناء والنيم وفي دواء أحسن من كل الأعشاب دي.

– دوا ايه؟

– خلايا النحل اللي في المزارع، بيطلع منها شمع وعسل بيشفي أنواع كتير من الأمراض أنتَ لازم تجربه.

– حقيقي ربنا ما خلقش حاجة عبث، وفيه شفاء للناس.. أنا بجد بستغرب الناس اللي بيكون قدامها دواء طبيعي ربنا خلقه وجعل فيه وقاية من المرض قبل ما يكون علاج وتروح تجري تدور على الأكل اللي يفسد صحتها.

– أكل يفسد صحتهم؟ طب وهما ليه ياكلوا أكل خامم.

– خامم إيه بس يا ميرال، دا الفاست فود خارب الدنيا.

– الفاست إيه؟

– ما تشغليش بالك، أنا بس اللي شدني في كلامك إن كل المهن اللي هنا مهمة ما عندكوش دكتور يترسم على نجار، ولا مهندس يشوف نفسه على سباك، ولا مدرس يتأنعر على حداد، ولا ظابط يهدل عامل نضافة، ولا رجل أعمال يتريأ علي فلاح، الكل هنا ليه دور. لو المزارعين ما زرعوش مش هتلاقوا تاكلوا، ولو العمال ما حفروش مش هيتلاقوا مايه ولو أنتِ ما خيطتيش هدوم مش هيلاقوا يلبسوا.

رغم كل البلاء اللي أنتم فيه بس حقيقي كنت أتمني بلدي تقدس المهن والحرف بتاعت الطبقات البسيطة وما يقللوش منها، أنتِ علمتيني حاجات كتير، غيرتِ تفكيري ونظرتي للدنيا، أنا آسف لو كنت سهرتك بس أنا من يوم ما قابلتك في الغابة وجبتِني أعيش هنا في بيت عريق وبقيتِ تحكي لي عن أكواتيرا وعن حياتك أنتِ بالتحديد وأنا بقيت أستنى أشوفك، ببقى مبسوط أوي لما بتكلم معاكِ وبحب أسمعك.

– لا آسف ولا حاجة، أنا يا دوب جاوبتك على أسئلة محيراك، إنما لو حابب تغير تفكيرك ونظرتك للدنيا بجد يبقى اشتغل علشان تحس بحلاوة الأجر.

– أشتغل! أنا أشتغل؟ طب وهشتغل هنا ايه؟

– اشتغل إيه حاجة لو حتى تشتغل مع عريق في بناية البيوت.

– أنا ابني بيوت من حصي وطين، ممممممم، حاضر يا ميرال هتعلم الشغل وهشتغل.

ابتسمت له ميرال وكانت تلك هي المرة الأولى التي تبتسم له منذ رآها في الغابة، فرجت أساريره بتلك الابتسامة، وشعر بأنه خفيف كريشة يحملها الهواء ويرتفع بها إلى أبواب السماء، كانت كذوبان قطعة ثلج في كأس نبيذ أكثر من كونها ابتسامة عابرة.

ابتسمت وغادرت وظل طيف ابتسامتها يطوف حوله، حينها أدرك أنه غارق لا محالة.

في صباح اليوم التالي استيقظ حازم مبكرًا على غير عادته، ثم ذهب إلى غرفة عريق ليوقظه.

شعر أن كلام ميرال ليلة أمس قد غير نظرته للأمور بالفعل.

قبل أن يوقظ عريق أخذ يتأمل هذا المنزل: منزلٌ طيني مكون من طابق واحد به غرفتين متجاورتين.

الغرف ليست موصدة بأبواب، بل بها فتحات تشبه الأبواب، ينسدل ستار من الكتان على كل فتحة.

بكل غرفة يوجد سرير خشبي كبير تكسوه ملاءة ووسادة بجانبه منضدة صغيرة، يعلوها كوب فارغ بجانبه قارورة ماء، وأمام السرير يوجد صندوق خشبي مطعم بالأحجار الكريمة يوضع به الملابس، مثبت على الحائط شعلتان متوازيتان تقاد النيران بهم ليلًا لإضاءة الغرفة، كما أن باقي حوائط المنزل مثبت بها شعل مشابهة، بأحد حوائط الغرفة يوجد فتحة صغيرة موصدة بقضبان معدنية تشبه الشباك، بجانبهما دورة مياه صغيرة فيها قدر معدني كبير مغطى بلوح خشبي يعلوه كوب من القصدير، ويملأ هذا القدر ماءً للاستحمام والطهارة، بجانب هذا القدر بروز بالحائط يشبه المصطبة أمامه إناء واسع، ومثبت بالحائط رف معدني يحمل قطعة قماش خشنة تشبه الخيش.

اعتقد حازم أنهم يستخدمونها في تنظيف أجسامهم أثناء الاستحمام، وبجانبها علبة صغيرة بها مسحوق لونه أبيض يشبه بودرة التلج اعتقد أنه شبة، وأخيرًا خليط يشبه العجين لونه أخضر مصنوع من الأعشاب والزهور الفواحة ذات رائحة زكية، اعتقد أيضا أنها مركبات ووصفات يستخدمونها في تعطير أجسامهم.

وهكذا لم يبق سوى المطبخ وغرفة المعيشة وهما عبارة عن غرفة واحدة تتوسط غرفتي النوم والحمام، بها أرائك ووسادات منسوجة من الكتان وقطعة من الخيش مسطحة على الأرض.

في نهاية الغرفة رفان معدنين مرصوص عليهما أواني، بعضها من القصدير والبعض الآخر من النحاس.

بجانبهما فتحة صغيرة كالشباك، ولكن أصغر يخرج منها دخان الموقد نوعًا ما، يوجد أسفلها على الأرض موقد صغير عبارة عن حجرين فوق بعضهما يوازيهما حجرين من نفس الحجم، وبينهما قدح معدني بداخله قطع من الفحم ويعلو الحجرين قطعة رقيقة من المعدن تسمح بنقل الحرارة بسرعة.

وبجانب هذا الموقد قطع خشبية صغيرة وحجرين حادين لإشعال النار.

أخذ حازم يتأمل هذا كله ويقارنه بمنزله ذي الثلاث طوابق متعدد الغرف، الممتلئ بكل وسائل الترفيه ورغد العيش.

المنزل الذي كان ساخطًا عليه رغم كل هذا التنعيم والترفيه.

استيقظ عريق من نومه فوجد حازم يقف في غرف المعيشة شاردًا، ينظر إلى الحائط فناداه فلم يجبه.

اقترب عريق من حازم، ثم ناداه ثانية فانتبه له حازم.

– إيه سرحان في إيه؟

– لا بس كنت بتفرج على البيت، بيتك حلو أوي.

– دا من كرم أخلاقك.

– أنا عايز أشتغل معاك.

– تشتغل معايا؟ تشتغل إيه معايا؟

– زيك ابني بيوت.

– وأنت بتعرف تبني بيوت؟

– هتعلم.

– هتاخد وقت كتير وهتتعب أنتَ ما تعرفش الناس برا عاملين إزاي.

– هتعود، هتحمل، هعافر علشان أعيش، وبعدين أنا بقالي كام يوم هنا والمايه قربت تخلص وأنا لازم اشتغل وأساعدك.

– أنا ما عنديش مانع، تحب تبدأ من امتى؟

– من دلوقتي.

– إيه الحماس دا كله، عمومًا ما فيش مشكلة أنا خارج للشغل دلوقتي جهز نفسك على ما أجهز علشان ناكل وننزل الشغل، هتيجي معايا أول كام يوم تتعلم على ما إيدك تاخد على الشغل.

– اتفقنا.

سُرَّ حازم كثيرًا لهذا الحديث وكأنه يحقق أحلامه.

لأول مرة يقوم بعمل اختاره بمحض إرادته ولم يفرض عليه، استعد حازم وجلس ينتظر عريق إلى أن حان موعد الرحيل وغادر الشابان المنزل متجهين إلى العمل.

كانت ميرال أيضًا قد حان موعد إقلاعها للذهاب إلى عملها.

وقفت متأهبة تستعد لمغادرة المنزل متجهة للمشتل لمقابلة بعض المزارعين الذين حصدوا لتوهم نبات الكتان.

خرجت ميرال وأوصدت الباب خلفها، فإذا بها تلتقي بالشابين.

ابتسم قلب عريق حين رآها وكأنه ببزوغ وجهها ذاك يعلن عن ولادة فجر يومه.

تتقلص عضلات قلبه بقربها تارة وتتمدد تارات، عن أي شمس يتحدث العالم! إنهم لم يروا إشراقتها بعد.

تقدم عريق إليها ثم قال:

– صباحك جميل يا ميرال.

– صباحك أجمل، إيه واخد حازم ورايح على فين بدري كدا؟

– واخده معايا الشغل، هو حابب يشتغل معايا.

رمقت ميرال حازم بنظرة يتخلل ثناياها ابتسامة أربكت كلًّا من الشابين ثم نظرت إلى عريق قائلة:

– خد بالك منه واوعى يغيب عن عينك، هو لسه ما يعرفش حاجة هنا وبلاش يختلط بأي حد ولا يتكلم مع حد علشان ما يحصلوش مشكلة.

كاد عريق يجيبها فأسرع حازم قائلًا:

– ما تخافيش عليَّ كل حاجة هتبقى تمام.

أومأت ميرال برأسها، ثم انصرفت وانصرف معها قلب عريق.

هذا الشاب الفقير ذو البشرة السمراء والعينين التي تشبهان حبات القهوة وجسده هزيل البنية، لم يكف قلبه عن الخفقان لها، رغم رفضها له يزداد قلبه تشبثًا بها وكأنه أقسم ألا يبرح حتى تبلغ من لدنها حبًا.

***

شرع عريق وحازم يتخللون شوارع أكواتيرا أثناء سيرهم للعمل، رأى حازم أهل البلدة؛ الأبيض منهم والأسود، البدين والنحيف رغم ضخامتهم، منهم من هو أحوص العين ومنهم من هو جاحظ، ذوو عيون لوزية الشكل سوداء اللون تعلوها أجفان سميكة بأهداب طويلة،

أغلبيتهم ذوي حواجب قوسية الشكل مع اتصال خفيف في شعيراتها، تتراوح أطوالهم من 370–400 سنتيمتر، ذوو أكتاف عريضة، رؤوسهم ضخمة ووجوههم مسطحة ليست بدائرية ولا بيضاوية طويلة تتمركز بها أنوف مفلطحة مع ارتفاع صغير في الأرنبة، جباههم واسعة وفي أعلى خدودهم أسفل أعينهم نتوءات تشبه الغمازة، ضروسهم كبيرة ذات قواطع أرنبية الشكل وأنياب محدبة، الجذع في أجسامهم أطول من الأطراف والعجز ضخم، شعرهم أسود يلامس ما بعد شحمة الأذن، ليس بمجعد ولا مسترسل، ثيابهم مهترئة عبارة عن تنانير كتانية قصيرة نسبيًا بالنسبة إليهم، تغطي من أسفل سرة البطن حتى الركبتين مع سترات مفتوحة وبدون أكمام تكشف عن صدرهم، أما الإناث فلباسهم عبارة عن رداء يواري الجزء العلوي من الجسد مع تنورة تمتد حتى بعد الركبتين بقليل.

أخذ حازم يتجول في ملامح أهل البلدة منتقلًا من أكواتيريٍّ إلى آخر، يجوب ردهات وجوههم دون كلل، حتى وصل إلى مكان العمل حيث يقنط جمع من الرجال انضم اليهم عريق وحازم ريثما يصل ربُّ العمل ليوزع عليهم المهام.

بعد فترة وجيزة شرع العمال في العمل وبدأ عريق ينقل لحازم ما أوتي من علم بهذه الحرفة، ويعلمه كيف يقوم بجمع الطمي من المناطق التي يتجمع فيها بكثرة ومن ثم يعلمه كيفية خلط ما في حوذته من طمي بالرمل الجيري وإضافة الماء، فينتج عجينة، فيتم بعدها عملية تشكيل القوالب وإدخالها بعد ذلك غرف توقد فيها نيران حارة ليتماسك القالب الطوبي ويصلح للبناء فيما بعد.

كان حازم ينصت بإمعان مرسلًا عقله لصلب الحديث، وبدأ يعمل وشعلة الحماس في صدره لا تخمد، فإنه في هذه المهنة رغم إنها

وضيعة لا تستدعي أن يكون صاحبها يتحدث ثلاث لغات، ويجيد قيادة الحاسوب، وذا خبرة لا تقل عن ربع قرن وحسن المظهر ولبق وملم بعراقة الماضي وتطور المستقبل، فيكون قد شارك في غزوة حُنين وبدر كما شارك في بطولة كأس العالم لكرة القدم وغير ذلك من الشروط التعجيزية التي تفرضها بعض الوظائف ذات طابع البدلة وربطة العنق والمكتب، وهذا السائل الساخن ذو الرغوة المدعو بالكابتشينو، فقد وجد بها شيئًا من المسؤولية والاعتماد على النفس جعل أساريره تفرج رغم عناء هذا العمل.

***

هناك في مزارع أكواتيرا والتي يعتمد عليها الأكواتيريون بشكلٍ رئيسٍ في الحصول على الكلأ، تقف ميرال مع بعض المزارعين تتفاوض معهم على شراء بعض الأقمشة التي غزلت لتوها بعد حصاد نبات الكتان وجمع خيوط الحرير.

أنهت ميرال مفاوضاتها وتأهبت للعودة إلى المنزل برفقة ثلاثة مزارعين يحمل كل منهم لفافة ضخمة من القماش.

وصلت ميرال إلى البيت يتبعها أولئك الرجال، أنزل كل مزارع ما يحمله على كتفه من أسفار، ثم أحضرت ميرال ستة جوالين من الماء لكل منهم اثنين حملوا جوالينهم وانصرفوا بعدها على الفور... أدلفت ميرال لفافات القماش للمنزل وأخذت واحدة منها، ثم أحضرت آلة حادة تشبه المقص ولكن طرفيها أطول بكثير، وقصت من القماش قطع بقياسات دقيقة ثم بدأت تحيكها ونور الابتسامة يشع من ثغرها.

بالكاد انتهت من حياكة تلك القطعة من القماش، فتمثل لها رداءً أنيقًا يختلف عن ثياب أهل أكواتيرا، لكنه يشبه ذاك الثوب الذي كان يرتديه حازم في أول مرة التقته في الغابة.

ظلت تتذكر ابتسامته البلهاء وحديثه الأخرق وتساؤلاته التي لا تنتهي، شعره الأسود اللامع، وبشرته الخمرية وعينيه الواسعتين اللتين كادتا تظنين أن أنهارًا من عسل تفيض فيهما، تتذكر ملامح وجهه جيدًا برموشه الكثيفة وغمازة النصف السفلي من ذقنه، وشفتيه الورديتين المكتنزتين، وصدره الواسع، ومنكبيه العريضين، عروقه البارزة في عضلات يده وكفيه، أنامله الدقيقة، تلك التفاصيل الصغيرة تمكنت من قلبها.

تلك الفتاة العنيدة التي لا تؤمن بتاتًا بهذا الهاجس المدعو ب: «الحب».

يكاد هذا الغريب التائه أن يقرع طبول قلبها، وبينما هي شاردة في أفكارها إذا بباب منزلها يدق، أسرعت لتجيب الطارق وبيدها الثوب الذي حاكته، فتحت الباب فوجدت حازم هو الطارق بجواره عريق، ابتسم حازم ثم قال لها: «مش هتصدقي اللي حصل النهاردا، أنا اتعلمت الشغل بسرعة أوي وهشتغل مع عريق على طول».

ابتسمت ميرال وأجابته:

– شيء عظيم، مبارك عليك.

أراد عريق أن يكون له نصيب من هذا الحوار فتدخل قائلاً: «أمَّال إيه اللي في إيدك دا يا ميرال، أنتِ بدأتِ في الطلبيات بسرعة كدا»؟!

– لأ دا مش للطلبيات، دا أنا خيطته علشان حازم.

ثم مدت ميرال يدها بالثوب إلى حازم لتعطيه إياه، نظر حازم إلى عينيها التي طالما فتن بها ومدّ يده ليمسك بالثوب فأمسك بيدها، أحس كأنه قد لمس السماء، اضطرب قلب كلاهما، واحتبست أنفاسهما في صدريهما، عيناه لا تزال مثبتتين في عينيها، وكأن مقلتيه ترفض أن

تشيح إلى شيء آخر، يداه ما زالت تلامس يدها حتى شعر كلاهما بحرارة الآخر.

على بعد ندبة وجرحين يقف عريق تتقطع نياط قلبه لهذا المنظر، كيف لها أن تهيل التراب على قلبه وهي ذاتها تسكن في عقر قلبه؟

يموج في رأسه ألف إعصار، تساؤلات لا يجد لها إجابة، ولا يقوى على سؤالها.

يشعر وكأن جلده يضيق عليه، وكأن حازم جاء ليحول بينهما.

انتفخت عروق وجه عريق وقال بصوت حاد:

– مش يلا بقى ولا هنبات هنا لبكرة؟

استأذن حازم وانصرف مع عريق، لكنه ترك قلبه باسطًا ذراعيه بوصيد بيتها.

دلف الشابان المنزل، اتجه عريق إلى الموقد ليطهو شيئًا يأكلانه، بينما حازم فقد ألقى بجسده على السرير، حاول أن يغمض عينه لينام بضع دقائق ريثما ينتهي عريق من إعداد الطعام، لكن تفاصيل وجهها وملامحها القابعة في مخيلته كشفت أمره وظلت تلاحق تفكيره.

تلك الفتاة ذات الحاجبين السوداوين العريضين والرموش السوداء الطويلة الكثيفة المتناغمة، تخيم السماء بزرقتها في عينيها، ويبيت ليل الشتاء بطوله في شعرها الذي ينسدل على ظهرها فيغطي خصرها، وتتفتح بتلات الزهور في وجهها النضر الناعم المستدير دقيق الملامح، تقبلها الشمس فتطبع حمرتها على وجنتيها بجانب هذين الجنتين المتمثلين في غمازاتٍ، وهذا النبيذ الأحمر في شفتيها يسكر المرء بالنظر إليه فماذا عن تذوقه، فمها الصغير مرسوم في شكل قلب ومحدد حوله بشكل طبيعي، أما عن تلك الشامة الصغيرة أسفل شفتها

فحدث ولا حرج، أنوثتها صارخة رغم اللعنة المقيمة في جسدها، جميلة كحور الجنة، فاتنة كالكواعب الأتراب، يطغي جمالها على الوصف، تبًّا لهذا الجمال الذي تنحني له الرقاب.

نحن بني الإنسان حين نحب نصبح عبيدًا لقلوبنا، نغدو عرائس ماريونت تحركنا أصابع مشاعرنا، نفقد السيطرة علي تلك العضلة الكامنة في الزاوية اليسرى من صدورنا فتصبح وظيفتها هي ضخ الحب في شراييننا لنعيش تلك العضلة المتقوقعة خلف أضلعنا، النائية عن صخب العالم، رغم صغرها إلا أن بوسعها أن تتمدد لتحوي الأرض والمجرات.

هكذا كما تمدد قلب حازم ليساع تلك العملاقة التي طغى جمالها على قوانين الطبيعة، إلى أي مدى يستطيع الصمود أمام إحساسه، كاد قلبه ينفجر من فرط ازدحامه بها، كيف له أن يصبر على ما لم يحط به خبرًا، كيف تسللت إلى قلبه ومتى؟ أحس أنه كان يراها لأول مرة، حتى خفقات قلبه تلك المرة كانت مختلفة، كيف تحول قلبه من صعيد جرز إلى جنة لا تبيد أبدًا ما بين نظرة ورجفة جفن.

يعرفُ الآن أنه تورَّط ووقع في هذا الفخ الجميل المدعو ب: «الحب».

انتهى عريق من إعداد الطعام ثم نادي حازم ليشاركه الغداء.

جلس حازم في مواجهة عريق بالقرب من الموقد، ثم أخذا يتناولان طعامهما.

همس عريق بكلمات خافتة غير مسموعة، فقال له حازم:

– بتقول حاجة!

امتعض وجه عريق وترك الملعقة من يده، ثم اقترب تدريجيًّا من حازم حتى كاد نفث زفيره يملأ رئتيه، قال بعدها بصوت جهوري:

– أنا اللي حبيتها الأول.

ابتعد حازم عنه قليلًا ثم قال:

– هي مين؟ أنتَ قصدك إيه!

كشف عريق عن أنيابه بابتسامه صفراء، ثم أقترب منه مجددًا وقال:

– أنتَ عارف كويس أنا قصدي مين.

بدا على وجه حازم شيء من التوتر دشنته تلك القطرات الفضية التي أخذت تتساقط من جبينه، أجابه بصوت خافت:

– أنتَ تقصد ميرال؟

– وهو في أكواتيرا كلها بنت تستاهل إني أحبها غيرها.

– بس أنا ما كنتش أعرف إنك بتحبها.

– وأديك عرفت، فلو عايز تعيش وسطنا بأمان خليك بعيد عنها.

– أنا آسف، صدقني ما كنتش أعرف إنكم في بينكم حاجة، كل الموضوع إنها هتساعدني أرجع بلدي، لو فهمت أي حاجة تانية غير كدا فاتأكد إنها تهيؤات بس مش أكتر.

– أنا قلت اللي عندي وقد أعذر من أنذر.

ابتسم حازم ابتسامة يعتريها الحزن، ثم استأذن أن يدخل غرفته لينام.

دخل حازم الغرفة تكاد تفيض عينيه من فرط الدمع التي لم تذرفه، وكأن حزن العالم يجثو فوق قلبه، حتى ملاذه الوحيد وموطنه الآمن في هذه الأرض لم يعد متاحًا، فهو لم يكن ملكًا له من البداية.

أخذ يقلب نفسه ذات اليمين وذات الشمال محاولًا أن يغفو ويتخلص من هذا الصداع المزعج الذي حل بقلبه، ولكن هيهات أن ينام من كان قلبه جائعًا.

أخذ يحدث نفسه متسائلاً:

«أليس من حق نفسنا البشرية أن تحب! أليس من حق قلوبنا أن تنام مطمئنة! أليس من حقنا أن نأخذ هدنة قصيرة نتنهد فيها ثم نعود لنواجه بشاعة هذا العالم وما يعتريه من قسوة؟ وإن لم تكن تلك الحقوق من نصيبنا، فلماذا خلق الله الحب إذن! حاشا لله أن أعترض، ولكن إن لم ينصف الحب ذويه ما حاجتنا به من البداية أصلا، ولم يجعل الحب من قلوبنا مشاع كبيوت مهجورة، كقبور تفوح منها رائحة عفن الجثث، ظلام يلطخ ظلام؟

ما حاجتنا بحب يجعلنا نهيم على وجوهنا، ما حاجتنا بحب تصلي به قلوبنا نارًا لا تخمد؟

والله لا حاجة لنا في أن ندين بمذهب الحب هذا، فقد كفرت به وبكل آياته».

***

في غرفة مكسوة بالعتمة، يُسمع فيها صوت رنين الإبرة عند إلقائها على الأرض، تستلقي ميرال على سريرها، ينبعث من قلبها ضجيج تفوح منه رائحة الخوف، لا تدري من أي شيء هي خائفة، أخائفة مما كان أم مما سيكون؟

قد كانت محصّنةً ضد الحب، فمن أي ثغرة أُختُرِق حصنها المنيع؟

تتساءل كيف يكون قلبها في جسدها ولا سلطة لها عليه، جلّ ما تعرفه أنه إن تمكن هذا الخوف منها فسيفتت قلبها بلا هوادة.

ولكنها تؤمن جيدًا أن لديها من الشجاعة ما يكفي لتبيد به هذا الخوف، فالحب حرب لا يخوضها إلا الشجعان.

مع إشراقة شمس اليوم التالي استيقظت ميرال وقامت ترتدي ملابسها بسرعة، تود أن تلتقي حازم وهو ذاهب للعمل، بعد بضع

ثوان أصبحت جاهزة، همت بالخروج لكن شيء ما جعلها تنتظر، عادت وأمسك قطعة بالية من الزجاج قد جار عليها الزمن أغلب الظن أنها مرآة، نظرت إلى انعكاس صورتها في المرآة وأخذت ترتب شعرها وتتحسس وجنتيها، لأول مرة يهمها مظهرها، لأول مرة تتذكر أنها أنثى، سمعت صوت دقات على باب منزلها فشعرت كأن الحياة دبت في عروقها وانطلقت نحو الباب لتجيب، فتحت الباب واللهفة تتخلل ثناياها، فوجئت بأن الطارق هو عريق وليس حازم، ابتسمت ميرال علي مضض ثم قالت:

– عريق! أهلا.

– صباحك جميل يا ميرال.

– صباحك جميل.

– أنا قلت أطمن عليكِ قبل ما أروح الشغل وأشوفك لو محتاجة حاجة.

– إيه دا هو أنتَ رايح لوحدك؟ فين حازم هو مش جاي معاك ولا إيه؟

– لأ مش جاي، دا أنا حتى فضلت أقول له تعالى معايا وألح عليه بس هو ما رضيش.

– مشكور على سؤالك يا عريق.

– مش هتعوزي حاجة؟

– لا شكرًا مش محتاجة حاجة.

ابتسم كلاهما بامتعاض، ثم انصرف عريق وبقت ميرال قيد خيبة أمل تطارد تفكيرها، حاولت أن تنشغل وتحيد بفكرها عنه في أي شيء، انقضى نصف النهار وهي تفكر كيف لا تفكر به، تترقب أن يأتيها يدق

بابها كما اعتادت منه أن يفعل، وكأن عالمها تمحور حوله لا ترى ولا تفكر إلا به، لا تعلم ما هذا الشعور الرائع والمؤلم في نفس الوقت، هل هذا ما يسمى حبًّا، لا تدري فهي لم تجربه من قبل، ولكن إذا كان تفكيرها اللامتناهي به يعد حبًا فهي تحبه، إذا كان اعتيادها على وجوده دائمًا حب فهي تحبه، إذا كان اضطراب القلب عند رؤيته حب فهي تحبه، إذا كان ارتباكها وهرب الكلام من لسانها في حرم وجوده حب فهي تحبه، إذا كان أرق الليل والانشغال والشرود والسهر غير المعتاد حب فهي تحبه، إذا كان شعورها بأن العالم يفقد ألوانه حين يغيب حب فهي تحبه، إذا كان تيهُهَا بين وجوه الناس بحثًا عن وجهه حب فهي تحبه، إذا كان لمعان عينها في قربه حب فهي تحبه، إذا كان ارتجاف جسدها بلمسة منه حب فهي تحبه، إذا كان اختلاس النظرات إليه حب فهي تقر أنها تحبه وتحبه وتحبه.

أدركت الآن أن حبه ينتشر في قلبها كما تنتشر النار في الهشيم.

قررت أن تذهب إليه تختلق أي أحاديث لتروي جفاف قلبها به، وقفت أمام بابه دقات قلبها صوتها أعلى من نقرات يدها على الباب، بعد ثوانٍ معدودة أتاها صوته يجيبها أن تمهل أيها الطارق.

فتح الباب فالتقت عيناهما، خيم السكون على كليهما، أصبح الصمت سيد الموقف، وكأن لسانها انعقد برؤيته، كل ما تريده أن يتوقف الزمن وتبقى شاردة في عينيه حتى يفنى العالم، مضت دقيقة وكلاهما تائه في عالمه، بالكاد تذكرت ما هي ذاهبة لأجله، ابتسمت ثم قالت:

- مساؤك جميل يا حازم.

ابتسم ثم أجابها:

- مساء الخير.

– أنتَ ما روحتش الشغل النهاردا ليه، أنتَ كويس؟

– آه أنا كويس جدا، شكرًا على سؤالك.

– طيب ليه ما روحتش الشغل؟

– أنا حر.

– نعم!

– أنا حر، سمعتيها ولا أقولها بصوت أعلى!

– أنتَ تعبان! فيه حاجة مضايقاك طيب؟

– ما قلت لك أنا كويس.

– أنتَ بتكلمني كدا إزاي؟

– وأنتِ تحبي أكلم جنابك إزاي!

– إيه الأسلوب دا! أنتَ أول مرة تكلمني بالطريقة دي.

– طيب اتعودي بقى عليها.

– هزارك بقى تقيل على فكرة.

– وههزر معاكِ أنتِ ليه!

– أنت؟

– أنتِ هتقفي بقى على كل كلمة أقولها! شكلنا مش هنخلص السنادي.

– أنا آسفة لنفسي إني قليت منها وجيت أتكلم معاك.

ثم انصرفت ميرال بسرعة قبل أن ينطق بكلمة أخري، انصرفت وقلبها يتآكل من الحسرة، كيف يتعامل معها هكذا؟ ماذا حل به؟ لأول مرة تراه بهذه الجدية، ولأول مرة يتحدث بتلك الوقاحة.

دخلت بيتها واتجهت إلى سريرها، القت بنفسها على السرير وأخذت تحملق بسقف غرفتها، تلك الفتاة التي لم يرجف جفنها حين

رأت السيف مغموس في رقبة أمها، ولم يرجف جفنها حين أخرجت من بيتها وشردت بلا مأوى، ولما يرجف جفنها حين مات الرجل الذي آواها في بيته وخرجت بعده لتعمل حاملة عبء نفسها وعبء أخيها، كم من صعاب مرت بها! وكم من محنة تخطتها دون أن تهتز، كل هذا الصمود أمام تلك العقبات أنهار مع أول دمعة ذرفتها من عينها، انتفضت من على سريرها وأمسكت بالمرآة، نظرت إلى انعكاس عينها، التهم الغضب ملامحها حين رأت لمعان تلك البلورات الدمعية في عينها، وكأنها تحذرها قائلة: «إياكِ أن تذرفي الدمع وإلا فقعتك. أتبكي؟ لماذا؟ ومن أجل من؟ البكاء للضعفاء، وهكذا أيضًا الحب، أخطأت حين ظننت بأن الحب للشجعاء، الحب ضعف، وما أنا بضعيفة».

***

في تلك الغرفة البالية يجلس حازم يؤنب نفسه ويجلدها على هذا الحوار المتهكم، كان يجب أن يكون لطيفًا أكثر من هكذا، ولكنه يخشى أن يذيق عريق من نفس الكأس التي ذاق منها، لم ينس قط خيانة مريم له، ولا يريد أن يكون سببًا في تعاسة أحدهم ولو كلفه هذا الأمر قلبه بل وحياته كلها.

بانقطاع الحبال بينه وبين ميرال فسيظل عالقًا في تلك البلدة الملعونة حتى تنفذ المهلة ويموت جسده وتدب روحه في الغابة ويصبح نبتة كسائر النباتات، ماذا عساه يفعل إذن!

ظل حازم يقاوم أفكاره محاولًا إخراج تلك العملاقة التي احتلت رأسه، واستعمرت قلبه وترسبت في شرايينه، هو يعلم جيدًا أن هذا الحب سيؤذي كليهما حتى النخاع، لكنه بعد فترة ليست بقليلة أيقن أنه لا مفر منها إلا إليها، فقد اعتاد أن يهرع إليها كلما اشتدت عواصف قلبه.

وقف أمام بابها كطفل صغير متسخ الثياب يعلم جيدًا أن أمه ستوبخه لكن لا ملجأ له غير حضنها.

دق الباب وانتظر حتى تجبه، عاود الطرق على الباب ولكن ما من صوت يذكر، اضطرب قلبه واشتدت دقاته على بابها، فتحت الباب ثم نظرت إليه بحاجبين مقوسين ارتسم بينهما تجاعيد غضب ثم قالت:

– نعم.

– أنتِ ما بترديش ليه! ما هو مش معقولة كل دا مش سامعة.

– أنا حرة.

– نعم!

– أنا حرة، سمعت ولا أقول لها بصوت أعلى!

– ميرال أنا...

– هششش، ارجع مكان ما جيت، ومش عايزة أسمع منك أي تبرير.

– لا أنتِ لازم تسمعيني.

– قلت لك مش هسمع حاجة.

اشتد الجدال بينهما وهمت توصد الباب في وجهه فدفعه بكلتا يديه قبل أن تغلقه، كادت تقع لكنه أحاط ظهرها بيده، انقطع صوتها كأنها ابتلعت لسانها، لكن عيناها قامت تبوح بما لم تستطع التفوه به.

أخذت عيناهما تفشي تلك الأسرار المخبأة في قلب كليهما، فما كان من حازم إلا أن دفع ظهرها بيده إلى صدره، أيقنت ميرال في تلك اللحظة أن مجادلة الألسن لا تضاهي جدال يده مع خصرها، فإنه لألذ النقاش لو تعلمون.

شعرت بنبضات قلبه تدق في جسدها، وحرارة صدره التي أخذت تذيب جليد قلبها، ويده التي لا تزال تحتضن خصرها، وأنفاسه المتلاحقة التي تلاقت لأول مرة مع أنفاسها، حاولت أن تلملم شتاتها ولكنها لم تستطع.

هذا المتسع بين ذراعيه أعمق من أن يكون وطن، كادت تنطق بكلمة فسبقها ووضع سبابته على شفتيها وأومأ برأسه أن لا تتحدثي، ثم أمسك بكلتا يديها ووضعهما على كتفيه ومدهما ليحيطا برقبته، ثم قربها منه أكثر حتى كادا يكونا جسدًا واحدًا، وكأنه يقول لها دثريني بك فقلبي انتصب من الارتجاف.

هكذا كان اعتذاره منها، وكأنه يعلم أنه ليس ببالغ رضاها إلا بشق الأنفس.

اقترب من أذنها ثم همس قائلًا: «بحبك».

ارتجف جسد ميرال ثم دفعته مبتعدة عنه، حاولت أن تعقب على ما قال ولكن لسانها قد عقد، دار في ذهنها حديثه لها منذ قليل وكلامه القاسي معها، كيف يحبها إذن؟ كيف ينجب الحب من كان قلبه عقيمًا؟

لم يرد حازم أن يرهقها بالتفكير، يعلم جيدًا ما يدور في ذهنها، فهمّ ليخبرها بتأويل مالم تستطع عليه صبرًا.

– أنا عارف أنتِ بتفكري في إيه، وقبل أي حاجة أنا عايز أقول لك أنا آسف، صدقيني ما كنتش أقصد أكلمك بالطريقة دي، بس غصب عني، أنا عارف إن اللي حصل دلوقتي دا غلط بس أنا حبيتك ماعرفش إزاي دا حصل وامتى وليه، أنا عارف إن قلبك مش ليَّ وإنك مش بتحبيني بس أنا أصلا اتعودت أي حاجة اتمناها ما تبقاش ليَّ وتروح لغيري، كل

اللي عايزه منك تسامحيني على طريقتي الغبية اللي كلمتك بيها، ويا ريت تنسي اللي حصل مني دلوقتي، ماعرفش عملت كدا إزاي بس حسيت إني عايز اعمل كدا.

كانت ميرال تنصت له بآذان صاغية، فما كاد ينهي حديثه فقاطعته قائلة:

– أنا مش مضايقة إنك عملت كدا.

– طب وعريق!

– عريق؟ ماله!

– أنتِ بتحبيه؟

– لأ طبعا مين قال لك كدا؟

أخذ حازم يقص عليها ما دار بينه وبين عريق الليلة الماضية مبررًا لها سبب معاملته لها بعجرفة حتى انتهى من سرد ما حدث.

اقسمت له ميرال بأن العلاقة بينها وبينه لا تتخطى حاجز الصداقة، ولكنها تعلم أنه يكابده عشقها وقد أخبرته مرارًا أنها لا يستهويها هذا النوع من العلاقات وأنها لم تحب في حياتها قط حتى إنها تؤمن بأنه لا وجود للحب من الأساس.

شعر حازم أثناء سماعه لكلامها كأن قلبها خلق من رحم الطهر فلم يدنسه كفوًا أحد، ولكنه تعجب من بعض ما قالته فقاطعها سائلًا:

– مش مؤمنة بوجود الحب؟

– هو أكيد أنا بحس وعندي مشاعر، لكن أنا مش مؤمنة بتقييد المشاعر مهما كانت طبيعتها تحت مسمى الحب.

– طب ليه ما حاولتيش تدي لنفسك فرصة وتجربي تحبي، على الأقل تحبي عريق، أنا شايفة كويس والأهم إنه بيحبك.

- إحنا ما لناش أي نفوذ أو سلطة على قلوبنا، وما نقدرش نجبرها تدق لحد معين حتى لو كان الحد دا بيحبنا، وحتى لو الحد دا حاول يكسب حبنا بأي طريقة، في الحب يا تتخطف من أول لحظة يا ما تتخطفش.

داعبها حازم قائلًا:

- اللي يسمعك يقول قضيتي عمرك كله تحبي، كل دا ومش مؤمنة بوجود الحب.

ابتسمت ميرال باستحياء، ثم نكزته في صدره فأمسك يدها مسرعًا وقربّها من شفتيه ثم قبّلها في راحتها، وكأنه يرويها من حبه تعويضًا لها عن كل تلك السنين التي عاشتها عطشانة، فسقاها حتى ارتوت الصاع صاعين.

***

اليحموم

في غرفة واسعة من غرف القصر يجتمع عدد من قادة الحرس على منضدة طويلة مستطيلة في انتظار حاكمهم الذي أمر بجمعهم لمناقشة شيء هام بخصوص أكواتيرا.

دخل اليحموم الغرفة بجواره حارسه الشخصي، هذا العجوز الأصلع ذو البشرة الخمرية والعينين السوداء الواسعتين القابعة في محاجر كبيرة وشفتيه الغليظتان، وعظام وجهه الجاحظة، أبخر الفم، أشيم الجلد، وخواخ البطن، قام جميع من بالغرفة تبجيلًا له، فجلس ثم أشار بيده ليجلسوا.

ثم بدأ يوجه حديثه إلى الحضور قائلا:

- أنتم عارفين سبب اجتماعكم هنا ليه؟

نظر القادة لبعضهم البعض ثم أومأوا برؤوسهم نفيًا فأتبع قائلًا:

– طبعا كلكم عارفيين إن أليف قائد كتيبة الأسقاء مفقود بقاله يومين وما حدش فيكم عارف يوصل لأي أثر يدلنا على مكانه.. النهاردا يا حضرات وصلني رسالة من مجهول ويسعدني أشارككم بيها.

ثم أشار اليحموم إلى حارسه الشخصي فخرج من الغرفة ليحضر تلك الرسالة، وما هي إلا ثوانٍ وعاد الحارس بصندوق خشبي صغير وضعه على المنضدة بحيث يكون واجهته للحضور وظهره لليحموم، ثم قام بفتحه فانبعثت رائحة كرائحة لحم خنزير فاسد، وضع قادة الحرس أيديهم على أنوفهم من فداحة تلك الرائحة، وأخذ بعضهم يسعل وكأن حوصلاتهم الهوائية امتلأت بغاز سام، أشار اليحموم إلى حارسه أن يخرج ما في الصندوق، مد الحارس كلتا يديه ممسكًا ما فيه وأخرجه بِرَوِيّة فصعق الجمع الحاضر حين وجودوا أن تلك الرسالة مجهولة الهوية ما هي إلا رأس أليف قائد كتيبة الأسقاء مفرغة الأحشاء ومغموسًا في جمجمته مسمار مثبت به ورقة.

انتزع اليحموم الورقة من رأسه، ثم قرأ ما فيها بصوت جهوري:

«أعيدوا الحق لأصحابه وإلا فعليكم اللعنة جميعًا».

تسلل الرعب إلى قلوبهم بعد رؤية هذا المنظر الذي اقشعرت له أبدانهم.

وأخذت تمتماتهم تتزايد متعجبين، عن أي حق تتحدث الرسالة وعن أي لعنة تشير، ألا يكفي تلك اللعنة التي لم تحل عنهم بعد.

أشار اليحموم إلى الحارس ليغلق الصندوق ويعيده أدراجه، ثم طرق بيده على المنضدة ليصمت الجميع.

– أنا مش عايز كلام لا بيقدم ولا بيأخر اللي عنده تفسير واضح للي حصل دا يتفضل يقوله.

لم يتحدث أي أحد، واكتفوا بالصمت والنظر إلى بعضهم البعض كأن على رؤوسهم الطير.

صاح فيهم اليحموم بلسان من جمر قائلًا:

– أنا عايز أفهم أنتم لازمتكم إيه؟ ما حد يرد عليَّ يقول لي معناه إيه الكلام دا.

قام أحد القادة ثم أخذ يفسر تلك الرسالة لليحموم بشيء من المنطق فقال:

– أنا شايف إن المقصود بالكلام اللي في الرسالة دا هو جلالتك، واللي باعت الرسالة دا أكيد ليه عند جلالتك حق وعايزك ترجعهوله.

أجابه اليحموم:

– ومين يجرؤ على عملة زي دي وحرس أليف كانوا فين وقتها، وحق إيه دا كمان؟

لم يجد إجابة من أحد، فأمر بفض الاجتماع بعد أن كلف القادة بفرض حماية مكثفة على القصر بأكمله.

انصرف الحضور وبقى اليحموم وحده برفقة حارسه في الغرفة.

أخذ يفكر من فاعل هذا الجرم الشنيع، ومن سولت له نفسه ليطالبه بهذا الحق المزعوم مرتكبًا هذا الخطأ الفادح.

فكر هنيهة ثم كشف عن أنيابه قائلا بغيظ: «ميرااااااال».

***

في منزل ميرال يجلس حازم على مقربة منها متكئًا على أريكة مصنوعة من الجوت.

أخذ يقص عليها كل شيء عن حياته، علاقته بمريم وخيانتها له، معاملة أبويه له وتميزهم لأخيه الأكبر عنه، حرمانه من حلمه في لعب

كرة القدم، كيفية مجيئه أكواتيرا وما مر به في الغابة، ماء النهر ذو الطعم والرائحة الخلابة، وتلك النباتات المتحدثة والأشجار المضيئة.

قاطع حديثه صوت طرق على الباب، طلبت ميرال منه أن يلزم الصمت حتى تجيب الطارق، فتحت الباب بمهل وألقت بصرها من خلفه فوجدت الطارق هو عريق.

ابتسمت وقالت:

– أهلا عريق.

– أهلًا يا ميرال مساؤك جميل.

– مساؤك جميل.

– أنا لسه راجع من الشغل من شوية ودخلت البيت ما لاقيتش حازم، أنتِ ما شفتيهوش؟

– لأ ما شفتوش.

– طب هيكون راح فين؟

– ماعرفش، زمانه جاي تلاقيه راح هنا ولا هنا.

– هو أنتِ مش قلقانة عليه؟

– وهقلق ليه؟

– هاه، لأ عادي يعني.

لاحظ عريق تقلب وجه ميرال فأخذ يسترق النظر إلى داخل بيتها.

رمقته ميرال بنظرة حادة ثم قالت:

– لسه فيه حاجة هتقولها!

– لأ هرجع البيت أنا بقى ولو شوفتِ حازم قولي له إني سألت عليه ومستنيه في البيت.

ابتسمت ميرال وأومأت رأسها بالإيجاب، ثم أغلقت الباب.

ما لبثت تجلس حتى وجدت الباب يطرق ثانية، فتحت الباب وأجابت على مضض:

– عايز إيه تاني يا عريق!

لكنه لم يكن عريق في تلك المرة، لقد كانوا جنود اليحموم أرسلهم إليها ليجتروها من بيتها إليه.

قالت ميرال بتهكم:

– نعم! يلزم خدمة؟

فأجابها كبير الجند:

– الحاكم أصدر أمر باعتقالك

– اعتقالي أنا؟ ليه؟

– ما عنديش خبر.

– ارجع قول للحاكم بتاعك ميرال رفضت تيجي معايا.

– أنا واخد أوامر ولازم هنفذها واتفضلي معايا من سكات.

همّ الجندي يمسك يدها فإذا بلكمة تأتيه من خلفها في منتصف وجهه.

أزاح حازم ميرال من أمامه فوقفت خلفه كطفلة تختبأ في ظهر أبيها، انقض الجنود على حازم بسياطهم حتى أبرحوه ضربًا سالت على إثره دمائه؛ عقابًا له على ما فعله مع كبيرهم، ثم كبلوه هو وميرال واجتروهم من أصفادهم إلى القصر أمام العامة من الناس.

***

في القصر لا يزال اليحموم جالسًا منتظرًا عودة جنوده بما كلفهم به، وفي غضون دقائق كانت ميرال ماثلة أمامه برفقة حازم.

ابتسم هذا الجعسوس ما إن رآها مكبلة بالأغلال، ثم قال:

– أهلا أهلا، نورتينا يا ميرال، كدا برده تطولي الغيبة، ومش تعرفيني على ضيوفك حتى نعمل له الواجب.

كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها حازم اليحموم، سمع عنه كثيرًا من ميرال، ولكن لم يتخيل أبدًا إنه بتلك الشناعة.

أجابت ميرال:

– أنتَ عايز إيه؟

– أنتِ اللي عايزة مني إيه؟

– هعوز منك إيه يعني!

– حقك.

– أي حق؟

– إيه نسيتِ ولا إيه؟

– لا طبعًا ما نسيتش، بس ليّ عندك حقوق كتير أنتَ بقى تقصد أي حق فيهم.

أشار اليحموم إلى حارسه بأن يحضر هذا الصندوق ذا الرائحة النتنة ويريها ما يقصده، أشاحت ميرال بوجهها ما إن رأت تلك الرأس المشوهة، انتفض جسد حازم برؤيتها، فقد اعتاد أن يستمع إلى ميرال وهي تقص عليه تلك الفواجع، ولكنها المرة الأولى التي يشهدها بأم عينه.

أمسك اليحموم الورقة وقرأها أمام ميرال:

«أعيدوا الحق لأصحابه وإلا فعليكم اللعنة جميعًا».

ثم أطبق الورقة وألقاها في الأرض ودهسها بحذائه قائلًا:

– عرفتِ بقى حقك مكانه فين؟!

– أنا مش فاهمة حاجة، ومش عارفة أنتَ بتتكلم عن إيه بالظبط.

تقدم اليحموم بخطوات هادئة كذئب يتربص لفريسته، اقترب من ميرال ثم همس في أذنها بصوت يشبه فحيح الأفاعي:

– قتلتِ قائد الحرس إزاي!

– أنا هقتله ليه؟ لو عايزة أقتل الأولى إني أقتلك أنت.

ضحك اليحموم باستهزاء ثم قال:

– دايما بتقنعيني بردودك، بس تفتكري مين يجرؤ يعمل عملة زي دي غيرك!

– ماعرفش، اسأل نفسك أمال أنتَ اسمك حاكم على أي أساس!

شعر اليحموم أن صبره كاد ينفذ فصاح مناديًا جنده قائلا لهم:

– خدوهم ارموهم في أي زنزانة وشددوا عليهم الحراسة.

غضبت ميرال وصرخت في وجهه معترضة على ما قاله:

– ياخدونا على فين، ما قلت لك ما عملتش حاجة، أنا مش هتحرك من هنا غير على بيتي، فكوني أحسن لكم.

أخذت تصيح وتعيد تلك الكلمات على مسامعهم ولكن دون جدوى، ثم جاء الجند يجرونها هي وحازم إلى الزنزانة، حاول كل منهما أن يتخلص من قبضتهم ولكن لا مفر.

وصل الجنود بهما إلى باب الزنزانة ثم ألقوهم داخلها فابتلعهم ظلامها.

ألصقت ميرال ظهرها بالحائط، ثم بدأت تقرعه بمؤخرة رأسها وعيناها تسيلان، اتجه حازم نحوها مسرعًا ووضع كفه خلف رأسها كي لا تتسبب في إيذائها، ثم ببطء أخذ يدفع رأسها للأمام حتى اقتربت من صدره.

التفت يده الأخرى حول خصرها واليد الأولى تتجول من عين إلى عين تكفكف دمعها.

هدأت ميرال وسكنت روحها ثم أغمضت عينيها، ضمد عناقه جرحها المكشوف والتحفت بصدره حتى تدثرت بين ذراعيه.

***

في غرفة النوم، يجلس اليحموم على سريره يعصف بذهنه، يسأل نفسه كيف استطاعت ميرال اغتيال أكفأ وأقوى جنوده رغم وجوده مع صفوف الحراس، ومن هذا الغريب الذي برفقتها!

وأثناء انشغاله ببحثه عن إجابات منطقية لتساؤلاته شعر برائحة كرائحة جثة يشيح فيها الدود، قام يبحث في الغرفة عن مصدر تلك الرائحة فإذا بجدران غرفته ترشح بالدماء، أخذ ينظر حوله في تلك الغرفة الفارهة فإذا بها تتحول إلى مقبرة ملطخة جدرانها بالدماء، وعلى أحد الجدران رأى حروفًا، يظهر حرف تلو الآخر مكونًا كلمات مكتوبة بالدم، انتفض جسده حين قرأها، فقد رأى تلك الجملة التي وجدها مثبتة في جمجمة أليف: «أعيدوا الحق لأصحابه وإلا فعليكم اللعنة».

أخذ اليحموم يصرخ مناديًا جنوده، حاول أن يفر من الغرفة لكن قدماه صارتا ثقيلتان لا يقوى على رفعها أو تحريكها، ازداد دوي صراخه حتى خر فاقدًا وعيه.

***

في الزنزانة لا تزال ميرال قابعة في الكهف المقام بين ذراعي حازم، وكأنها خرجت عن مسارها وكفت عن دورانها حول الأرض آخذة هدنة من العالم لتستريح، لم يجذبها حازم إلى حضنه بل هي من تكورت بين ذراعيه مجرورة من قلبها.

حاول حازم أن يخلق مجالًا للحديث يناسب هذا الموقف، حاول أن يتغزل بها ولكنه لم يستطع، لم يجد في قاموس حياته كناية تليق بها، وكأن اللغة عاجزة عن وصفها وكيف عساه يصف جمالها وحروف لغته مبتورة.

من عمق ما شعر به أحس أن كلماته مهما حملت من معاني بين طياتها لن تفي بالغرض؛ ففضّل أن يظل صامتًا.

وبعد بضع دقائق أخذت ميرال تتمتم بصوت هادئ لم يستطع حازم تمييز أي كلمة مما قالتها، فطلب منها أن تعيد ما قالت قائلًا:

– بتقولي حاجة؟

أخذت ميرال تبتعد عنه تدريجيًا وتبعد يده عن جسدها رويدًا رويدًا، ثم ثقبته بنظراتها قائلة:

– تفتكر هما ليه بيقولوا إن مراية الحب عامية؟

رفع حازم أحد حاجبيه متعجبًا لسؤالها، ثم تنهد قائلًا:

– يمكن علشان أوقات كتير بنحب ناس ما تشبهناش أو علشان لما بنحب حد أوي ما بنشوفش فيه حاجة غير اللي إحنا عايزين نشوفها وعيونا بتتعمي عن أي حاجة تانية.

– طب ولما هو كدا ليه قالوا إن مراية الحب هي اللي عامية!

– يعني إيه مش فاهم؟

– مراية الحب مش عامية، مراية الحب مبصرة جدًا، بس إحنا اللي بنرفض نعترف إننا عُمي بإرادتنا.

– أنا برده مش قادر أفهم أنتِ قصدك إيه؟ أو بمعنى أصح مش عارف عايزة توصلي لإيه!

– أنا بقيت زيهم.

– هما مين!

– اللي عيشت عمري كله بحاول مابقاش زيهم.

– ميرال، أنا مش فاهم حاجة.

– جالا، راتيل، وألما.

– مالهم؟

– كانوا عُمي بإرادتهم وأنا دلوقتي بقيت زيهم.

– أنتِ قصدك إنك...

– إني بحبك.

***

التف الجنود حول اليحموم يحاولون جعله يستعيد وعيه بعد أن حملوه من على الأرض ووضعوه على سريره.

أحضر أحدهم عشبة ذات رائحة نفاثة ووضعها بالقرب من أنفه، وما إن استنشق ريحها حتى عاد له الوعي.

أخذ ينظر حوله ويحملق في الجدران ما من دماء، أين اختفت تلك الجملة المكتوبة على الحائط؟ وأين قطرات الدماء التي كانت تسيل وترشح من الجدران حوله؟ هل كان هذا حلمًا؟ هل كان كل هذا من وحي خياله وما هو إلا مجرد وهم!

أشار اليحموم إلى الجنود أن يخرجوا من الغرفة ليستريح.

خرج كل الجند وبقي وحده مستلقيًا على فراشه، اتكأ برأسه على وسادته وأغمض عينيه من فرط إرهاقه النفسي والجسدي، وما إن غطا مقلتيه بجفنيه سميكي الشحم إذا بقطرات تتصبب على وجهه، فتح عينيه ببطء ثم شخص بنظره إلى أعلى ليري منبع تلك القطرات، انتفض جسده ودب الزعر في أوصاله حين رأي قطرات الدم تتساقط

من رقبة مذبوحة منزوعة الرأس في جسد مثبت بسقف الغرفة أعلى سرير نومه؛ أغلب الظن أن هذا الجسد لأليف.

أصابته نوبة صراخ هيستيرية لم تتجاوز الدقيقة، حاول أن يخرج أو ينادي الحرس ولكن صوته قد خانه تلك المرة هو الآخر وانقطع دويه.

هذا الطاغوت الذي بجر بطن راتيل وقطع أوتار رقبة ألما ولم يرجف له جفن ترجف الدماء في شرايينه لهذا المنظر، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ إنه معتاد على سفك الدماء دون هوادة ولا رحمة، أهكذا هو الشعور حين يسقي كل ساقٍ بما سقى؟!

***

ذهب جنديان إلى الزنزانة لإحضار ميرال، اجترها الجنود للخروج معهم وقام حازم ليرافقها، لكن أحد الجنود دفعه داخل الزنزانة وأوصد عليه بابها الحديدي، وقفت ميرال ثانية أمام اليحموم لا تعلم لماذا طلب رؤيتها تلك المرة ولا تعلم كم مرة عليها أن ترى هذا الوجه القبيح.

– أفندم عايز مني إيه تاني!

– صفحة جديدة، نفتح صفحة جديدة وننسى اللي فات وهخليكِ تعيشي معايا في القصر.

– في مقابل إيه!

– تسامحيني على كل اللي فات وهعوضك.

– هههههههه أسامحك! وهتعوضني كبرت وخرفت!

– إلزمي حدودك ومش معني إني بتهاون معاكِ إنك تسوقي فيها.

– بقى جايبني من بيتي وممرمطني وعاملي وش إرهاب علشان تقول لي الكلمتين دول، ما كنت وفرت على نفسك كل دا.

– يعني إيه وضحي كلامك!
– القصر والحكم وكل اللي هتعوضني بيه دا اشبع بيه مش عايزاه.
– أنتِ كدا بترفضي النعمة وبتشتري عداوتي من جديد.
– هه اللي أنتَ طايله اعمله.

انتفخت عروق اليحموم من الغضب وصاح بالجندي ليرجعها حيثما كانت، ما كاد يغلق فمه حتى أحس بيدٍ ملتفة حول عنقه تخنقه، أمسك رقبته بكلتا يديه محاولًا نزع تلك اليد الخفية ولكنه لم يستطع، أخذ يلهث إلى حد أن ازرقت شفتاه، تسلل الرعب في قلب ميرال وجنوده، ولم يجرؤ أحد منهم أن يخطو خطوة واحدة لينقذه.

وبينما هو ينازع ويصارع اللاشيء ليلتقط أنفاسه فإذا بحروف مكتوبة بالدم تظهر على الجدران من جديد مكونة بعض الكلمات التي اقتلعت أفئدة الشاهدين:

«لقد كنتم قساة إلى حد عظيم، لقد كنتم في ضلال مبين، لقد كانت قلوبكم غُلّف، وعقولكم مثقوبة، وبطونكم ملؤها الخراء، رائحة الظلم تشيح منكم تماما كرائحة الموت إلى حد سواء، حكمتم فطغيتم فأفسدتم، لم تبتغوا في الأرض حرثها، فلم تنبت بقلها وقثائها وإنما أنبتت الشر الذي هو حصاده رؤوس الشياطين خاصتكم، ولكن مهما طال ليل الظلم فلا ريب في أن فجر العدل آتٍ آت، اليوم يعود الحق لأصحابه وتشرق شمس حكم جديد لا ظلم فيه بعد اليوم، السمع السمع والطاعة الطاعة لحاكمكم الجديد.. ميرال».

حملقت ميرال ومن حولها من الجنود المثبتة أعينهم على ما كتب على الحائط، بعد أن لفظ اليحموم آخر نفس له في الدنيا وأصبح طريحا على الأرض جثة هامدة.

هدوء يخيم على الجميع، خوف يزلزل أبدانهم، أي لعنة هذه! هل زوال الظلم أصبح لعنة! أم إن تلك اللعنة تخص الظالمين فقط.

علي أي حال لقد تخلص الجميع من هذا الحقير وعلموا حاكمهم الجديد وأصبح الكل يعلم كيف يكون مصير الظالمين، ولكن كيف سيتقبل أهل أكواتيرا نبأ تولي ميرال الحكم، وهم يعلمون أنها ابنة بيراك الذي أتى باللعنة إلى عقر أرضهم!

وكيف سيصدقون أن هناك قوة خفية انتقمت من اليحموم وأمرت بتولي ميرال الحكم حتى دون الخضوع لرأيها؟ لا بد أن الأمر سيكون مرهقًة للغاية لإقناع عقولهم العقيمة بما حدث.

***

بعد مرور ساعتين استعادت فيهما ميرال ثباتها أمرت الجنود بإلقاء جثة اليحموم خارج القصر وإحضار حازم من الزنزانة على الفور، وإطلاق سراح كل المساجين، وعتق كل المجندين بكتائب الأسقاء، وإحضار أخيها وإصدار قرار ينص على إيقاف الحفر وجمع كل الأكواتيريين في الساحة لتلقي كلمتها.

أتى إلياس إلى أخته وعانقها بحرارة، وأخذت تقبل رأسه وتقبل يديه ثم وضعت كفيها على وجنتيه قائلة:

– أنتَ كويس؟ عامل إيه؟ طمني عليك، كنت بتاكل كويس وبتنام كويس؟

– أنا بخير يا ميرال طمنيني أنتِ عاملة إيه؟ وبتعملي إيه هنا؟

– موضوع يطول شرحه هفهمك كل حاجة بس مش دلوقتي.

– أمال امتى؟

قاطع أحد الجنود حديثهما:

– السجين اللي طلبتيه يا جلالتك.

حازم:

– جلالتك؟

إلياس:

– أنا مش فاهم حاجة، مين دا يا ميرال؟ وإيه جلالتك دي هو فيه إيه!

ميرال:

– هتفهموا كل حاجة دلوقتي بس تعالوا معايا.

خرجت ميرال برفقة حازم وإلياس وبعض الجنود إلى ساحة أكواتيرا، بعد أن اجتمع العامة من الناس منتظرين اليحموم ليلقي عليهم بعض القرارات ليزداد سحلهم، ولكنهم عندما رأوا ميرال وأخيها برفقة الجنود اخذت تمتماتهم تعلو ليعم الضجيج المكان وتسيطر حالة من الفوضى على الموقف.

لم تأمر ميرال جنودها بالسيطرة على الوضع، جل ما فعلته هو أنها قامت برفع يدها اليمنى بحيث تكون راحة اليد مقابلة للجمع الواقف أمامها.

استغرق الأمر دقيقتين حتى صمت الجميع، وألقوا أبصارهم يختلسون النظرات حينها قامت ميرال بالتحدث:

– أنا عارفة إنكم كلكم مستغربين، وعارفة إن في كتير وسطكم عارفيني، وعلشان كلكم عارفيني أكيد برده عارفين إني كنت ولية العهد قبل ما اليحموم يستولي على الحكم.

صاح أحد العامة من أكواتيرا قائلًا:

– قصدك قبل ما أبوكِ يجيب لنا اللعنة.

– معاك حق، بس خلينا متفقين إني ما ليش يد في اي حاجة حصلت وإني ضحية زيي زيكم.

أجابها صوت آخر بتهكم:

– والمفروض بقى إننا نطبطب عليكِ يا ضحية!

– أنا ما قلتش كدا وما طلبتش منكم أكتر من إنكم تسمعوني، هتفيد بإيه العداوة بينا! أنا ممكن أفرض حكمي عليكم بالقوة واللي هو أصلا دا حقي وأديه رجع لي، بس أنا مش عيزاكم تهربوا من ظلم لظلم أكبر منه، أنا كل اللي طلباه منكم إنكم تساعدوني نكون إيد واحدة ونبدأ مع بعض عهد جديد كله خير، خير وبس.

قال رجل كبير منهم:

– واحنا نصدقك إزاي وأنتِ أبوكِ خاين، إيه يضمن لنا إنك مش زيه!

– ما فيش ضمان، بس أنتم ما قدامكوش حل غير إنكم تصدقوني وتحطوا إديكم فإيدي ونبدأ نعمر من جديد وإلا هنموت كلنا.

جاوبها بضع أناس قائلين:

– إيه المطلوب مننا؟

– المطلوب منكم دلوقتي أقل بكتير من اللي كنتم بتعملوه قبل كدا، إيه مجند في كتيبة الأسقاء معفي وما عادش فيه تجنيد إجباري من النهاردا، الأطفال الصغيرين والشيوخ الكبار ليهم راتب أسبوعي من المايه من غير شغل ومن غير تعب، أجر العمالة هيزيد والحفر هيكون بالرغبة مش بالتجنيد، وعمال الحفر هيكون ليهم امتيازات ورواتب ثابتة، كل عيلة هتاخد راتب يكفي احتياجاتها وزيادة، وأنا هيبقالي راتب زيي زيكم وما فيش احتكار للسلع ولا للمايه من النهاردا، وهعين إلياس

أخويا قائد للحرس واعتبروه قاضي ليكم يسمع مشاكلكم ويحلها ويوصل لي رغباتكم وطلباتكم واللي عايز أي حاجة يطلبها وهتكون عنده.

ارتفع صوت الأكواتيريين فرحين بما سمعوا، وأخذوا يلقون عليها طلباتهم مرة ويهتفون باسمها مرات، يبدو أنهم نسوا أن ما منحتهم إياه ما هو إلا حقوقهم المغتصبة المنهوبة، وأن هذا أقل ما يمكن تقديمه لهم تعويضًا عن السلب والظلم الذي تعرضوا له طوال تلك السنين.

إنه ليس من السهل إقناع شخص عاش حياته كلها على ضوء الحطب المشتعل بأن هناك شمسًا تشرق من أجله كل صباح.

***

وبعد مرور فترة ليست بقليلة جرت الأمور في أكواتيرا على أفضل حال، كل شيء تغير للأفضل، لا وجود لجنود يجترون العامة من أصفادهم، ولا تجنيد إجباري لتحقيق مصالح شخصية، ولا ذبح وقتل وإراقة دماء وبجر بطون.

قد يولد النعيم من رحم اللعنة، كما يشق الفجر عتمة الليل، صدِّقهم حين يقولون إن سماء الظلم تمطر عدلًا وإن بحيرات اليأس تفيض بالأمل، شتان بين كل ضد وضده؛ فالجنة لا ينبغي لها أن تدرك النار، ولكن لا معنى للجنة إذ لم يكن هناك نار.

في القصر تجلس ميرال على كرسي الحكم، هذا الكرسي الذي يصارع الناس بعضهم بعضًا لأجل الوصول إليه، وكأنهم يضمنون به منزلة في الفردوس الأعلى!

كانت ترتدي ثوبًا رقيقًا حاكته بيدها، ثوبًا مغزولًا من الحب، طرق حازم الباب فأذنت له بالدخول.

– مولاتي.

- بطل مولاتي دي ما بحبهاش.

- أنتِ مولاتي من قبل ما حكمك يرجع لك وبعدين النهاردا عيد ميلادك لازم شوية دلع كدا.

- أنا ميرال يا حازم ميرال وبس.

- لازم تبقي ميرال وبس، ما فيش وصف أو كناية أو تشبيه ينفع يتحطوا ورا اسمك، مش هيبقى لهم معنى؛ لأن اسمك لوحده بكل المعاني الجميلة اللي في الدنيا.

- أنا ولا حاجة من اللي قلتها، دي أنا أبسط من كدا بكتير، بلاش تبالغ في حبك للحاجة حتى لو كانت الحاجة دي أنا يا حازم.

- صدقيني مش ببالغ، أنا بس عايز أقول لك إن المدعو حازم حسين عابد الماثل أمام سيادتكم بكل ما أوتيت لغته من بلاغة، وبكل ما أوتي لسانه من فصاحة عاجز عن وصف شعوره تجاه سيادتكم فتقبلي منه خالص اعتذاره علشان هو والله بيحبك.

- حازم!

- يا عيون حازم.

- أنتَ لزج أوي.

قالتها ميرال وارتفع صوت ضحكاتها هي وحازم وخيمت ملامح السرور على وجهيهما، لكنه سرعان ما تبدل الحال حين شعر حازم بألم شديد طرحه أرضًا، شعر وكأن أطرافه متصلبة، جثت ميرال على ركبتيها بجانبه وأمسكت يده بقوة، لا تعلم ما الذي أصابه.

أخذ حازم يتأوه من الألم وقلب ميرال يتأوه من شدة الخوف عليه.

أدركت ميرال أن ما أصابه هذا هو سكرات اللعنة، فقد مر عام على شربه من مياه ذاك النهر الملعون وأكله من ثمار تلك الغابة، مر

العام سريعًا وحازم لا يزال في أكواتيرا، لم تحل عنه اللعنة التي أصابته ولم تستطع ميرال إعادته إلى وطنه قبل انقضاء المدة المزعومة.

لم يبق من الوقت إلا قليل، وتخرج روح حازم من جسده وتدب في الغابة ليولد نبات جديد يعمل في الغابة عمله في أكواتيرا، فأشجار الألماندين التي قابلها حازم عندما كان تائهًا في الغابة وأضاءت له الطريق تعود أرواحها لرجال يعملون في صناعة الشعل التي توقد النيران فيها لتضيء المنازل والطرقات، ونباتات الكسندريت التي أكل من ثمارها أرواحها كانت لرجال يعملون باعة فاكهة وخضروات، أما زهور اللابرادوريت التي استخدم عصارتها لعلاج جروح قدمه كانت أرواحها لفتيات يعملن في الطب البديل. أي إنهم يستخلصون الدواء من الأعشاب، وغيرهم من النباتات في الغابة، من شدة الألم الذي بدا على حازم شعرت ميرال وكأن الروح تخرج من أظافر قدمه حتى منبت شعره، ازرقت شفتاه وصارت يديه باردتين إلى حد التجمد.

انسابت قطرات دمع حارة على وجنتي ميرال، كان حازم تعويضها الوحيد عن خذلان العالم لها، ولكن العالم لم يكف عن خذلانها، ما من كلمات تصف فاجعة الفقد، كأن يموت الطفل الوحيد لأم استأصلت رحمها، كأن ينهش السرطان قلب أب لطفل ماتت أمه وهي تلده، كأن يطلب منك العالم أن تبتسم وأنت تسير حاف القدمين على قطع زجاج حادة، كأن تمضغ جمرًا وتتلذذ بمذاقه، كأن يوضع في كأس نبيذ سمَّ عقرب وتجبر على أن تسقيه لأمك.

احتضنته ميرال قائلة: "مش هتموت، مش هسيبك تموت يا حازم، ما حدش بيفرط في روحه وأنت روحي، ما تخافش مش هتموت قوم معايا يا حازم حاول تقوم، أكيد هو عنده الحل، بقى هي دي هديتك ليّ في عيد ميلادي يا حازم، قوم معايا بقى وحياتي عندك."

الفصل الأخير| طارق سعد

في شرفة منزل يطل على النيل، يجلس رجل وسيم ذو لحية بيضاء يتخللها بضع شعيرات سود، يبدو على ملامحه الكبر ولكنه في صحة جيدة، يعيش مع ابنته الوحيدة في منزلهم الصغير، كان جالسًا مستمتعًا بمنظر الغروب بعدما عانق الشفق الأحمر السماء، أمسك بهاتفه المحمول وأخذ يتجول في تطبيقاته، ثم فتح تطبيق «الواتس آب» ليرسل لابنته رسالة فإذا بجرس البيت يرن، قام ليفتح فوجدها قد عادت قبل أن يراسلها.

– بنت حلال أنا لسه كنت هبعت لك رسالة أشوفك اتأخرتِ ليه علشان أنا جعان جدا ومستنيكِ نتغدى سوا.

– معلش يا حبيبي اتاخرت عليك ثواني وهجهز لك الغدا وناكل سوا.

علي طاولة الطعام يجلس الأب وابنته.

– إلا صحيح أخبار زميلكم اللي أهله بيدوروا عليه إيه، ما فيش جديد؟

– هاه قصدك حازم، لا والله يا بابا ما وصلوش لحاجة.

– ربنا يصبر قلب أهله، أنا مش قادر أحط نفسي مكانهم بمجرد التفكير حتى، ربنا ما يوجع قلبي عليكِ أبدا يا مريم.

– يا رب يا بابا يا رب ولا يحرمني منك أبدا.

قالتها مريم ثم أكملت طعامها.

موبايل مريم يرن.

– ردي على موبايلك يا بنتي يا أنتِ سرحانة في إيه؟

– ها دا مش مهم دي غادة زميلتي هتغدى وأكلمها.

– أنتِ كويسة يا مريم؟!

– أيوة يا بابا أنا كويسة أهو فيه إيه؟

– حاسس إنك متغيرة، مش مريم اللي أنا عارفها.

– لأ خالص يا حبيبي، أنا بس من يوم ما حازم زميلي دا اختفى وأنا متوترة وصعبان عليّ أهله اللي مش عارفين يا ترى هو عايش ولا ميت.

– ربنا ما يوجع قلب حد على ضناه، الضنا غالي أوي يا بنتي.

– يا رب يا بابا.

بعد تناولهما الغداء طالب والد مريم أن تعد له كوبَ شاي وتحضره له في الشرفة، دخلت مريم بكوب الشاي لأبيها فوجدته ممسكا بهاتفه يشاهد مقطع فيديو لصور والدتها على أغنية تقول كلماتها: «ماقدرتش أنساك والليالي كل ما تفوت الليالي كل ما أشتاق يا حبيبي وأقول.. أيامنا وحشاك ولا ناسي ياللي أنتَ من غيرك بآسي ياما نفسي أعيش وياك على طول».

– يظهر إني جيت في وقت مش مناسب يا تيكو باشا.

– بطلي لماضة يا بنت.

– للدرجادي بتحبها يا بابا.

– ما بطلتش أحبها من يوم ما ماتت، دايمًا شايفها قدامي، اسمها موجود لسه في البيت وما بيروحش من على لساني.

– وعلشان كدا غيرت لي اسمي من زلفة لمريم علشان كل ما تناديني تفتكرها!

– ما بنساهاش علشان افتكرها، ما بتغيبش عن بالي، لما بتوحشني وببقى نفسي تكون بين إيديا وأضمها بغمض عيني وافتكر ملامحها الجميلة وضحكتها اللي كانت أرق من ضحكة الأطفال. أوقات كتير اتمنيت إنها تكون مدفونة في مصر علشان وقت ما الدنيا تضيق عليّ أروح عند قبرها أشكي لها، عمرها ما فشلت في إنها تهون عليّ وتواسيني حتى هي ميتة، كل ما بحتاجها بتيجي لي في أحلامي تطيب خاطري، كتير أوي ببقى نفسي أسافر تونس وأزور قبرها وأقضي معاها وقت أطول، العالم بقى مريض بداء المسافات اللي بيصيبنا بالعجز، بس هي، هي مش بتقيدها مسافات ولا بلاد ولا حدود، روحها بتسافر من الجنة علشان تيجي تزورني، عمري ما شوفت ست أحلى منها، كانت ست الستات في عيني، كانت ست بصورة ملائكية، قدرت تعمل مني راجل، أنا مدين لها بكل الحب لحد ما أموت وأقابلها.

– إيه دا أنتَ عايز تسيبني في الدنيا لوحدي يا بابا، بعد الشر عليك ربنا يطول لي في عمرك.

– الموت مش شر يا مريم، الموت بيجمعنا بحبايبنا اللي سبقونا للحياة اللي بجد، الحياة الأبدية.

– الموت خد مني كل حاجة، عمره ما جمعني بحد قد ما كان بيفرق بيني وبين كل الناس اللي مصيري متعلق بيهم، تقدر تقولي إزاي الموت مش شر لما خلّا أبويا وأمي يموتوا وأنا لسه ماوعاش على الدنيا، إزاي الموت مش شر لما خد مني الست اللي اتبنتي وعوضتني عن أمي اللي ماتت قبل ما أشوفها، الموت شر علشان خلاني نحس على كل الناس اللي بدخل حياتهم ويا إما بيموتوا يا إما بيختفوا يا بابا.

– الموت مش شر لأنه مش هو اللي أخد منك أمك وأبوكِ، سليم سافر أمريكا علشان يعمل عملية استئصال ورم خبيث نسبة نجاحها

ما يعديش 60 %، يعني كان رايح وعارف إنه كدا كدا ميت وأمر الله نافذ، لكن هو ما ماتش بالمرض، عارفة مات بإيه!

– إيه!

– مات بشر، الشر اللي بجد مش الموت اللي أنتِ مفكراه شر، الشر اللي بيجلب الموت في الأساس!

– شر إيه!

– الإرهاب، الإرهاب اللي ما لوش دين ولا وطن.

أنا كنت في تونس أنا ومريم وكنا متجوزين بقالنا 4سنين وما خلفناش، وقتها عرفت إن مريم ما بتخلفش ورضيت وحمدت ربنا علي باقي النعم اللي رزقني بيها، ولما أبوكِ جه طلب مني إني آخدك عندي لحد ما يرجعوا من أمريكا ما ترددتش لحظة، وعلى قد خوفي وقلقي عليه من خطورة العملية اللي هيعملها، على قد فرحتي بوجودك اللي نسيتني إني ما خلتفش، وبعد ما سافروا بيومين خبر تفجير أبراج التجارة العالمية في أمريكا كان مالي الدنيا، حاولت أكلم سليم ماعرفتش واتقطعت أخباره.. وبعدها اسمه هو وأمك نزل مع تسامي ضحايا التفجير، يومها الحزن شق قلبي على صاحب عمري، بس وقتها عرفت إن ربنا طبطب على قلبي بيكِ واعتبرناكِ أنا ومريم بنتنا، حتى إننا خبينا عليكِ أنتِ شخصيًا حكاية إننا مش أهلك الحقيقيين.

البني آدم دا مخلوق غريب أوي يا بنتي، بيجيب لنفسه وجع القلب، ولو فيه مرة الوجع دا ما جاش لحد عنده بيدور عليه ويروح له هو برجليه، مقتنع إنه لما يحفر ويدور على الحاجة اللي شاغلة تفكيره هيرتاح، ما يعرفش إنه لما يشوف كل حاجة على حقيقتها، الحقيقة دي هتصدمه وهتجرّده من مشاعره، مش قادر يستوعب إن كل حاجة

من بعيد أحسن، وإن القرب حتى لو بان إنه جميل فهو مؤذي لأبعد الحدود، ولأن الإنسان كائن فضولي بطبعه بقى بيتجرأ على اللي خلقه، ويتدخل في الغيبيات، هي دي طبيعة البشر يا مريم وأنا يا بنتي مش هلومك إنك حاولتِ تعرفي حقيقتك وتفهمي أنتِ مين وبنت مين، صحيح الحقيقة دي خسرتني مراتي اللي ما كنش حيلتي في الدنيا غيرها، بس دا مقدر ومكتوب، بلاش تلومي نفسك على حاجات ما لكيش يد فيها، بلاش تجلدي روحك وهي ما لهاش ذنب في حاجة، إحنا بشر يا بنتي، أضعف بكتير من الصورة اللي بنرسمها لنفسنا علشان نبان بيها ونوهم بعض بقوة زايفة.

– تفتكر يا بابا فيه حد هيحبني زي ما بتحب ماما؟

– أنتِ جميلة، والرجالة ماليين الدنيا.

– بس مش كل الرجالة بيحبوا بجد.

– الراجل يا بنتي هو اللي بيحب بجد، أشباه الرجالة ما بيحبوش، الفرق بينهم عظيم.

ابتسمت مريم ثم قالت:

– طيب يا حبيبي أنا هدخل أذاكر شوية قبل ما أنام، لو عوزت حاجة نادي علي.

دخلت مريم غرفتها تفكر في كلام أبيها، أغلقت باب الغرفة وجلست على سريرها ثم تناولت هاتفها لتجري مكالمة.

– ألو.

– أيوة يا حبيبي.

– إيه يا مريوم كلمتك يا بنتي مردتيش ليه!

– سوري يا عماد كنت بتغدي أنا وبابا.

– أها، بالهنا يا قلبكم.

– عماد ممكن أتكلم معاك في حاجة؟

– خير يا رب فيه إيه؟

– ما فيش هو مش موضوع معين بس حابة أتكلم معاك شوية.

– اتفضلي يا ستي اتكلمي.

– أنا حاسة إن علاقتنا بقت باردة أوي، حساك متغير معايا وما عدتش مهتم بيّ زي زمان.

– يادي الموضوع اللي ما بنخلصش منه، مريم أنتِ عايزة تنكدي بجد ولا دي هرمونات؟

– أنا بتكلم بجد يا عماد، حتى غادة حساها واخدة جنب مني هو في إيه؟ أنتم بتعاملوني كدا ليه؟

– بنعاملك إزاي يا بنتي هو حد كلمك!

– أنا نفسي تحبني زي ما بابا كان بيحب ماما.

– والحاج الوالد كان بيحب الوالدة إزاي بقى إن شاء الله؟

– حبهم جميل أوي ما يتوصفش في كلام، حب بجد ما بتعكروش الأيام بمشاكلها وروتينها.

– مريم يا حبيبتي الحب بتاع أبوكِ دا دقة قديمة، أنتِ عيزاني أشغلك اغاني الست وأقعد أسرح في جمال عيونك ولا إيه!

– لا أنا ما قلتش كدا ولا حتى طلبت تعمل كدا، وبعدين الحب ما فيهوش قديم وجديد، طب ما هو حسام بيحب غادة وبيحاول يسعدها على قد ما يقدر.

– حسام وغادة مين؟

– حسام أخو حازم وغادة أختك.

– غادة أخت مين؟ أنتِ اتجننتِ ولا جرى لعقلك حاجة!

– أنتَ بتكلمني كدا إزاي يا عماد، فيها إيه يعني لما يكونوا بيحبوا بعض!

– تحب مين دا أنا أقطم زمارة رقبتها وأشرب من دمه دا التاني.

– ليه بقى إن شاء الله هي عملت إيه غلط!

– أنتِ عبيطة يا بنتي، هو إيه اللي عملت إيه غلط، عايزاني أسمع إن أختي ماشية مع واحد وأسقف لها ليه رافع قرون!

– إيه ماشية معاه دي، دول بيحبوا بعض زي ما إحنا بنحب بعض، أنتَ مضايق نفسك كدا ليه!

– وأنتِ شيفاها حاجة ما تضايقش، دا أنا هقوم أكسر دماغها، أنا أختي مش رخيصة علشان تحب وتكلم من ورايا، أنا أختي محترمة.

– ولما هو كدا بتكلمني ليه من ورا بابا ما تيجي تتقدم لي.

– أنا ما كلمتكيش من ورا أبوكِ.. أنا ممكن آجي حالا وأقول له إزي حضرتك يا عمو.. على فكرة أنا ماشي مع بنتك، أنتِ اللي بتكلميني من وراه.

– إيه اللي أنتَ بتقوله دا، طب لو سمحت يا عماد ما عتش تكلمني تاني لحد ما تيجي تتقدم لي ويبقى اللي بينا في النور وقدام كل الناس لأني مش هقبل أخبي عن بابا حاجة تانية.

– أتقدم لمين يا روح بابا! أنتِ شقط يا بنتي، دا أنا واخدك كسر باقي من حازم، أنتِ هتنسي نفسك ولا إيه!

– إيه يا حيوان اللي أنتَ بتقوله دا، أنتَ بني آدم زبالة!

– لا هتقلي أدبك هقل أد...

أغلقت مريم المكالمة قبل أن يكمل كلامه، ثم أصابتها نوبة بكاء هيستيرية، التقطت الوسادة التي بجانبها ودفنت وجهها فيها حتى لا يتسلل صوت بكائها لخارج الغرفة ويسمعها أبوها.

بعد بضع دقائق بكاء متواصل حاولت مريم استعادة ثباتها الإنفعالي وتذكرت كلام هذا الوغد وقسمه بأن ينال من أخته.

التقطت هاتفها بسرعة وأخذت تتصل بغادة، صوت دقات جرس ولا توجد إجابة، أخذت مريم تعيد الاتصال عليها أكثر من مرة حتى أجابت أخيرًا.

– غادة، ما بترديش لي، بقالي كتير بكلمك، طمنيني عليكِ أنتِ، كويسة، عماد عمل فيكِ حاجة؟

– وعماد هيعمل في حاجة ليه؟

– أصل... أصل كان... بصي بدون دخول في تفاصيل أنا وعماد كنا بنتكلم دلوقتي وأنا بالغلط قلت له إن أنتِ وحسام مرتبطين وبتحبوا بعض وهو حالف يكسر دماغك.

– آه وبعدين.

– آه وبعدين إيه، بقول لك عماد عرف إنك بتحبي حسام ومستحلف لك.

– وإيه المشكلة لما يعرف.

– هو أنتِ مش خايفة؟!

– وأخاف من إيه؟ أنا ما بعملش حاجة غلط، حسام من أول يوم اتكلمنا واعترف لي بحبه طلب مني إننا نتجوز وكان مكلم باباه ومامته من قبل ما يفاتحني في الموضوع أصلا، وكلم بابا واتفق معاه وحدد معاه الميعاد كمان، بس جه بقى موضوع حازم أجل كل حاجة، هو عماد علشان ما بيقعدش في البيت كتير ما جتش فرصة إني أحكي له، ووقت

ما يجي يواجهني اللي هيرد عني هو بابا، أصل بنات الناس المحترمين والمتربيين يا مريم ما بيعملوش حاجة من ورا أهلهم، بنات الناس المحترمين اللي أنتِ أخرك تسمعي عنهم، إنما تبقي منهم دي صعبة وبعيدة عليكِ أوي.

– إيه اللي بتقوليه دا يا غادة أنتِ اتجننتِ!

– لا أنتِ اللي اتجننتي، لما افتكرتِ إن ممكن واحد يآمن على نفسه مع واحدة باعت حبيبها علشانه، اتجننتِ لما سيبتِ حازم علشان عماد، اتجننتِ لما فكرتِ إن عماد او أي راجل غيره هيقبل ببنت خاينة زيك، ما تستغربيش أنا عارفة كل حاجة من زمان، واللي أنتِ ما تعرفيهوش بقى إن حازم كمان كان عارف، عارف حقيقتك الزبالة، عرف وشاف خيانتك بعينه، أنتِ ما كنتيش تستاهلي الحب اللي حبهولك وعلشان كدا ربنا رحمه من واحدة زيك، ووجعه اللي أنتِ كنتِ سبب فيه ربنا ردهولك أضعاف، داين تدان يا ست مريم وربك ما بيظلمش حد.

أغلقت مريم الخط وهي في حالة يرثى لها، اختلط عليها الأمر فما عادت تعلم من الظالم ومن المظلوم، لا تدري هل هي القاتل أم الضحية، لم تستطع كتم بكائها أكثر، تسللت مريم من غرفتها حتى وصلت إلى باب الشقة، خرجت وأغلقت الباب خلفها ثم اندفعت على السلم تجري كالرياح بلا وجهة، كانت الشوارع هادئة جدًا، فارغة إلى حد مزعج، الساعة قد تخطت العاشرة مساءً، وكانت الحكومة في ذاك الوقت تفرض حظر تجول حفاظًا على سلامة المواطنين من فيروس كان مستجد حينها، كانت تجري في الشوارع كالتائهة كلما جفف الهواء الدمع على خديها، سكبت عيناها المزيد.

إلى أن وصلت إلى كورنيش النيل، أرادت الاقتراب أكثر من الماء لعلها تهدئ روحها الثائرة، تخطت حاجز الكورنيش ونزلت إلى حيث

يلامس الماء قدميها، خلعت قلبها ثم خلعت نعليها، وخطت أول خطوة في الماء.

أحست بلذة خفية، جعلتها تنسى أنها حتى لا تستطيع السباحة، أخذت تتقدم حتى غطى الماء نصف جسدها، كأن الماء يحتضنها، شعرت بنشوة عارمة في كل خلاياها، لا نية لديها للتراجع، الماء يغسل قلبها من أحزانه؛ لذا فلماذا تتراجع!

كان الأمر مسليًا إلى أن غطاها الماء كليًا، وصارت لا تستطيع لمس القاع بقدمها، كانت تظن أنها يمكنها السيطرة على الأمر حتى سحبتها المياه بعيدًا عن البر.

الماء يغطي رأسها كلما حاولت أن تشب لتعلو بجسدها، لا يوجد أي أحد يخرجها من الماء، أخذت تصرخ ولكنها لم تجد من ينقذها من غرق مؤكد.

ازداد الأمر سوءًا حين رأت دوامة على مقربة منها، حاولت الابتعاد وظلت تحاول وتحاول وتدعو الله أن ينجيها، كانت تصرخ وتدعو الله حتى اقتربت من الدوامة وبدأت المياه تسحبها حتى انتهى بها الأمر إلى أن ابتلعتها تلك الدوامة المائية..

وبمجرد أن ابتلعتها تلك الدوامة فقدت مريم وعيها واستسلم جسدها للمياه، فحملته وسارت به في جوف البحر حتى وصلت إلى منطقة استكان فيها اضطراب الأمواج، ثم لفظته من باطنها إلى سطح البحر فطفى جسدها، وأخذه التيار الذي سار بها تحتضنها موجة وتسلمها للأخرى.

ظل جسدها ينجرف في اتجاه سير الماء وهي لا تزال فاقدة الوعي، حملتها الأمواج حتى وصلت إلى شاطئ أحد البلدان فألقته على البر.. وشاء القدر أن يكتب لها عمرًا جديدًا.

قضت مريم فترة طويلة في الماء مما جعل جسدها يبدو رخوا، مرت ساعات وهي على حالتها، لا تزال مغشيًا عليها على رمال الشاطئ تداعب الأمواج قدميها، ومع بزوغ شمس يوم جديد، سطعت اشعتها على وجهها المتعب، بدأت تستعيد وعيها رويدًا رويدًا، كانت متعبة إلى حد عظيم، لم تستطع وضع يدها على وجهها لتفادي أشعة الشمس، حاولت النهوض ولكن عظامها لم تعد قادرة على حملها وكأنها أصيبت بشلل تمكن منها، كل عظمة في بدنها تتكئ على الأخرى لتعينها، ظلت ملقاة لا حول لها ولا قوة، استغرق الأمر وقتًة طويلًا حتى جمعت كل ما أوتيت من قوة لتنهض من على الأرض وتخطو قدمها أول خطوة، أصبحت الخطوة خطوات، والخطوات أصبحت أمتارًا كثيرة، كانت تمشي شاردة لا تفكر في شيء ولا يشغل بالها هذا المكان الذي لا تعلم ماهيته ولا كيف ستعود لبيتها، وكأنها حصلت على مرادها وأرادت الانعزال عن العالم، مر وقت طويل وهي ما زالت تسير بلا هدف ولا وجهة، أخذت تتفقد المكان حولها، صحراء جرداء، أفقها خلاء، تطل على بحر واسع غير معلوم الحدود، يروقها هذا الهدوء والانعزال عن العالم، لكن الجوع والعطش والإرهاق لا يروقها على الإطلاق.

لا يوجد أي كلأ حولها، ولا أي سبيل للحياة، شعرت بجفاف حلقها وأصبح الأمر يزعجها بعد أن كان يروقها، كيف تجد ماءً صالحًا للشرب في هذا المكان، حين تمكن الظمأ منها لم تجد بدًا سوى بتذوق ماء هذا البحر، لا تجد حلًا آخر، مدت يدها واغترفت بها شربة ماء، ثم رشفت منها رشفة فاستحالت ملامح وجهها على الفور، وأخذت تشرب حتى ارتوت.

وما إن أدارت ظهرها للبحر حتى وجدت أشجارًا عالية كثيرة في كل مكان يمينًا ويسارًا، كان يدور في ذهنها ألف سؤال وسؤال، ولكنها لم

ترهق نفسها بتلك الأسئلة وألقت بها عرض الحائط، ثم قامت تتخلل هذه الأشجار الضخمة معجبة بجمالها، ظنت أنها هكذا تخلصت من عالمها الملعون، لم تكن تعلم أن تلك بداية اللعنة الحقيقية.

***

في الغابة يستند حازم على كتفي ميرال وإلياس، تحاول ميرال قدر المستطاع الوصول إلى وجهتها التي لا يعلمها أحد سواها، خرجت من القصر حين اشتدت السكرات على حازم، تأبى أن تتركه يموت بعد أن أعاد إليها الحياة.

كانت ميرال تسحبهم خلفها إلى أن وصلت إلى كوخ خشبي يبدو في حالة سيئة، اقتربت من باب الكوخ ودقته، فتح الباب عجوز اشتعل رأسه بالشيب، لحيته طويلة تغطي صدره، شعر رأسه طويل وهيئته العامة في حال يرثي لها، حين لمح ميرال قال لها:

– كل سنة يوم عيد ميلادك بتجي لي في نفس الميعاد دا بس لوحدك، أول مرة تيجي معاكِ ضيوف.

– مش وقته ساعدني ندخل حازم الأول.

– حازم مين؟

– قلت لك مش وقته ساعدني الأول.

ساعد العجوز ميرال وإلياس ودخل كل منهم الكوخ، بالكاد كان يساعدهم.

بدأت ميرال تقص على الرجل ما حدث لحازم قائلة:

– في عيد ميلادي اللي فات وأنا راجعة من عندك قابلت حازم في الغابة، كان تايه كانت هيئته مختلفة، جسمه كان صغير زينا قبل اللعنة، في البداية خفت حد يقابله ويعرف إنه مشي في الغابة أو إنه

شافني وأنا راجعة من عندك، هو قال لي إنه كان في بحر في العالم بتاعه اسمع النيل والبحر دا حصل فيه زي فجوة جابته هنا على أكواتيرا، الغريبة إنه قال إنه ما شافش الغابة غير لما شرب من نهر جونداس، وقتها الغابة ظهرت فجأة، ولما مشي في الغابة وحب يرجع عند النهر تاني ماعرفش، وقابل أشجار ونبات بيتكلم زينا، ودلوقتي فات سنة والمفروض إن روح حازم هتخرج منه وتدب في الغابة، أنا جاية لك تساعدني، أنا مش عيزاه يموت، أنا بحبه يا بيراك.

كان هذا العجوز الكهل هو بيراك والد ميرال، كان مختبئًا كل تلك السنوات في نفس الكوخ الذي عاشت فيه راتيل وجالا.

هذا يعني أن ميرال الوحيدة في أكواتيرا من استطاعت عبور الغابة والعثور على بيراك، بل وكانت تزوره كل عام في نفس الموعد وتزوده بالماء والطعام، كل عام في ليلة عيد ميلادها، ليلة عيد ميلادها التي كانت راتيل تقاسمها أبيها فيها.

تلك الشجاعة التي دفعت ميرال للبحث عن أبيها في الغابة ما هي إلا محض چينات ورثتها منه، اليوم وبعد كل هذا تقف أمامه طالبة منه أن يساعدها وهو حتى لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا.

نظر بيراك إلى حازم بعطف قائلًا:

– تقدر تحكي لي إيه اللي حصل لك وجيت هنا إزاي؟

كان حازم في حال يرثى لها، ولكنه أخذ يقص عليه ما دار معه بشكل تفصيلي عله يستطيع إنقاذه.

– الكلام ال أنتَ بتقوله دا يا حازم معناه إن فيه فجوة حصلت في نهر جونداس والفجوة دي متصلة بالعالم بتاعك، والوقت اللي أنتَ جيت فيه هنا كان يوم ميلاد ميرال يعني بيوافق يوم ميلاد راتيل، بس أنا أول مرة أسمع عن فجوة زي دي، فجوة تربط عالمين ببعض، كل اللي

أعرفه إن زي النهاردا من كل سنة، فيه راجل مائي بتدب فيه روح وبيلف النهر كله زي اللي بيدور على حاجة أو تايه منه حد، كل سنة في نفس المكان اللي كنت متعود أشوفها فيه، وردة بتتمايل على الشط وبيعزف لها عصافير، نفس الشط ونفس المكان كنت بشوف فيه المجسم المائي اللي شبه الانسان دا، ويجوز الفجوة تكون بتحصل بسببه.

يعني لو افترضنا إن الفجوة دي بتتفتح كل سنة في نفس الميعاد دا يعني دا معناه إنها هتكون مفتوحة النهاردا، وفرصة إنك ترجع العالم اللي جيت منه كبيرة جدا ودا يعتبر الحل الوحيد علشان تعيش.

– بس أنا لما دخلت الغابة بعد ما شربت من النهر جيت أخرج وأرجع تاني للشط ما عرفتش زي ما أكون اتحبست ما كنتش عارف أرجع ولا أكمل.

– دا معناه إن الغابة ما بتظهرش غير للي بيشرب من النهر وبعدها بيتحبس في أكواتيرا زيه زي الأكواتيريين، ما ينفعش يخرجوا براها، زي اللي عايشين جوا سجن كبير، وحقيقي مش لاقي تفسير لأنك ما عرفتش ترجع للنهر تاني، هو جايز كنت بتهيأ لك.

– طب والحل إيه، أنا كدا هموت هنا.

قاطعه إلياس قائلًا:

– وليه تدفع عمرك تمن غلطة مش غلطتك!

نظر الجميع إليه بتعجب ثم سأله بيراك:

– أنتَ مين!

ضحك إلياس بسخرية وقال:

– أنا الغلطة الوحيدة اللي أنتَ عملتها في الدنيا، أو بمعني أصح الغلطة اللي أنتَ عملتها وبسببها أنا جيت الدنيا، كان نفسي في وقت

زي دا أحكي عن شجاعة أبويا وبطولاته بدل ما أتدارى في جلدي من نظرات الناس لما يعرفوا إن أبويا هو سبب اللعنة اللي دمرت حياتهم، كان نفسي أحبك زي ما هي حبتك، وكان نفسي أحبها بس يا خسارة! ماتت قبل ما أشوفها.

– أنت...

– ابنك، ابنك اللي من يوم ما جه الدنيا دي وعينه ما شافتش غير الدبح والدم والظلم والجوع، ابنك اللي أمه اتقتلت قبل ما يوعى على الدنيا وكل دا بسببك.

– أنا...

– بس اسكت مش عايز أسمع صوتك، اوعى تكون فاكر إني واقف قدامك دلوقتي صدفة!

اوعوا كلكم تكونوا فاكرين إني موجود هنا دلوقتي صدفة! لأ، أنا هنا علشان أنا عايز أكون هنا.

نظرت إليه ميرال باستغراب:

– أنا مش فاهمة حاجة، أنتَ بتقول إيه!

– إليف! قائد كتيبة الأسقاء تسمعي عنه؟ قائد عظيم فعلًا، بس يا خسارة مات. أنا مكنتش هقتله، هو اللي شافني وأنا بحط أعشاب تخدير لليحموم في المايه، كل كتيبة فيها 100جندي وأكتر بيخالفوا الأوامر ويسيبوا مربع خدمتهم، ليه أنا بالذات اللي جه ورايا وراقبني، ما هو لو كان خلاه في حاله كان زمانه عايش.

سألته ميرال والذعر يلتهم وجهها التهامًا:

– أنتَ اللي قطعت رأس أليف وبعتها في رسالة لليحموم؟ أنت تعمل كدا يا إلياس؟ طب ليه وعشان إيه كل دا؟

– وأعمل أكتر من كدا كمان، اوعي تكوني فاكرة إن الخير حب ينتصر على الشر فبعت رسايل ترعب اليحموم وتجننه، كل اللي حصل دا أنا اللي عامله، أنتِ نسيتِ إني دجال ابن دجالة ولا إيه، لولايا ما كنتيش قدرتِ توصلي للحكم وخليكِ فاكرة كدا كويس.

– ليه؟ كل دا ليه؟ رجعت لي الحكم ليه، علشان عايزه؟ كنت خده أنت، كنت اعمل سحرك دا كله لنفسك، بتبني في دولة أساسها باطل ليه؟

– حكم؟ إيه حكم دا اللي بتتكلمي عنه؟ بلد ملعونة كل اللي فيها بيكرهوا بعض، اتولدوا وعاشوا وهيموتوا على الظلم والكره والغل!

– ولما هو كدا رجعته ليه؟ وليه ليّ مش ليك أنت!

– صدقيني كل حاجة محسوبة بالمللي، حتى اللحظة اللي إحنا واقفين فيها سوا دي سيناريو أنا اللي راسمه وعارف إنه هيحصل، أما بقى ليه، فعلشان أنتِ الوحيدة اللي عارفة مكانه، وكنت متأكد إنك بتروحي له كل سنة في نفس الميعاد، هتقولي لي ليه ما راقبتكيش علشان أوصل له وأوفر كل دا على نفسي، عارف إنك هتسألي نفسك السؤال دا، بس أنا مش بالغباء دا علشان أبوظ خطط بجهزها من سنين علشان آخد حقي وحق أمي، أنا مش عبيط علشان أراقبك وأنا عارفة إنك بتحطي مليون احتمال إن يكون فيه حد مراقبك سواء أكواتيريين أو جنود اليحموم، وأي طريقة أراقبك بيها هتبقى مضيعة وقت مش أكتر.

قطع بيراك حديثهما قائلًا:

– واديني قدامك أهو يا ابني، شوف يرضيك تاخد حقك مني إزاي وأنا مش همنعك.

– ما حدش هيقدر يمنعني، ما حدش يعرف يمنعني.

ثم انتزع إلياس سيفه بعد أن كشف عن أنيابه وغمسه في قلب بيراك، ولم يوقفه صراخ أخته الذي رج أرجاء المكان.

أمسك إلياس السيف وانتزعه من صدر بيراك وأخذ يطعنه طعناتٍ متتالية في بطنه حتى برزت أحشاؤه، ألقيت ميرال على الأرض من هول المنظر.

هدأ الجميع وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، هبت رياح شديدة في الغابة حتى إنها كادت تقتلع الكوخ من الأرض، وكأن الرياح أتت لتجرد الغابة من ردائها الأخضر.

كانت الرياح تدور حول الكوخ كالعاصفة تقتلع الأخضر واليابس، هطلت الأمطار فازداد سواد المشهد وارتفع صوت الرياح يصاحبه أنين رعد السماء. في الكوخ ميرال ملقاة على الأرض بجانب حازم الذي فقد وعيه هو الآخر، بجانبهما جثة بيراك التي مزقت أشلائها، وفي الزاوية يجلس إلياس القرفصاء يحتضن ركبتيه، فإذا بصوت الرياح يعلو من جديد، وضع كلتا يديه على أذنيه محاولًا منع صراخ الرياح من التجول داخل قناته السمعية.

وإذ فجأة يسمع صوت نقيد من فوقه، لو سمعته لحسبت أن ابواب السماء تغلق في وجه الأرض، لكنه كان صوت اقتلاع الرياح لسقف الكوخ.

عم الخراب أرجاء المكان، ثم تسللت الرياح من بينهم لتحمل جثة بيراك.

أخذتها الرياح وانطلقت إلى ساحة أكواتيرا في لمح البصر، وبمجرد أن وصلت المكان المنشود ألقت به الرياح أرضًا، العامة من الناس لا يعلمون من هذا، مر وقت طويل على إصابتهم بتلك اللعنة، كما أن

ملامح بيراك تغيرت كثيرًا، أخذ الناس يشيحون بأبصارهم بعيدًا عن هذا الجسد الممزق، حتى رآه رجل يبدوا كبيرًا في السن إلى حد ما.

اقترب الرجل من الجثة وأخذ يفحص ملامح وجهه ثم صرخ بصوت عال:

– بيرااااااااااااااك.

أقبل الأكواتيريون يتدافعون ليصل كل منهم أولا إلى الجثة، أخذوا يغمسوا أيديهم في دمه ويطبعون به على ملابسهم ووجوههم وكأنه نحر ضحوا به، وكأن اليوم أصبح عيد أضحاهم... ثم فجأة شعر الجميع بألم عظيم، وكأنهم كبلوا من أيديهم وأقدامهم بالحبال ويسحبون من وثاقهم حتى كادت تنفصل أطرافهم عن جسدهم.

كانوا يصرخون من شدة الألم، وتعالت أصوات العامة من الناس، وكأنه وباء أنتشر في البلدة، تشنج جسد جميع من بأكواتيرا وكأنهم أصيبوا بصرع وانتابهم صداع شديد أخذ يفتك بأدمغتهم.

بدأ جسم كل من في البلدة يتقلص وكأنهم قطعة من مطاط وضعت في ماء بارد، غدت أعضائهم تنكمش وتعود لحجمها البشري الطبيعي.

بعد نوبات الصراخ التي دوت في البلدة بأكملها فقد كل أكواتيري قدرته، وسقطوا مغشيًا عليهم وعم صمت مخيف في كافة أنحاء أكواتيرا.

اختفت أصوات الصراخ وبقت أجسادهم على ما هي عليه بعد أن تقلصت وغطتهم ثيابهم العملاقة التي كانوا يرتدونها.

في الكوخ، الجميع مغشي عليه، بعد أن عادوا إلى حجمهم الطبيعي، عادت ميرال إلى حسنها وجمالها، جسدها الفاتن وعينيها الواسعتين وشعرها الغجري.

كان حازم هو أول من يفيق من إغمائه، أول ما وقع عليه نظره هو ميرال، لم ينتبه لجسده ولا لما صار عليه قدر ما انتبه لجمالها الساحر حين عادت لطبيعتها وانحلت اللعنة عنها، أحب قلبها دون أن يلقي بالًا لشكلها ولا لجسدها ولا لعرقها ولا لنسبها، أحبها هي لأنها هي، لا لأنها جميلة، لا لأنها حاكمة أكواتيرا، أحبها كما يجب للحب أن يكون.

اقترب حازم منها، وضع راحة يده على وجنتها وأخذ يحرك إبهامه بحنو، أفاقت ميرال فوجدته جانبها وقد تغيرت هيئته، لم تنظر هي الأخرى إلى حالتها ولا إلى ما هي عليه، ألقت أفكارها عرض الحائط وظلت تحملق في عينيه وكأنها تراه للمرة الأولى.

ابتسم حازم ثم قال:

– جمالك غلب جمال الملايكة.

مازحته ميرال قائلة:

– وأنت شفت الملايكة فين؟

– أنتِ عندك فوبيا من الكلام الحلو! يعني ما تعرفيش تقولي كلمتين عدلين علي بعض أبدًا؟

– أنا بعرف أحضن.. أحضنك؟

كلمة شكر

أعلم الآن أنك تقرأين، أعلم أنك ستبتسمين؛ لأنك تعلمين أنك المنشودة. لا أعلم من أين أبدأ، كل ما أعرفه أن بدايتي معك تكون من حيث ينتهي الآخرون، كنت أول كتف أستند إليه حين تميل بي الدنيا، ثابتة أنتَ لا تميلي ولا تملِي.

بيضاء أنت وكأنك خلقت من رحم القمر، منسوجة من الجنة، جميلة كمعاهدة سلام بعد عمر من الحرب، نقية أنتَ كسماء الله لم يمسسك بشر يا ذات الطهر الملائكي.

كم تمنيت أن يكون لي صديقة بنكهة أخت فرزقني الله بك، هل تظنين أنك هنا بمحض الصدفة أتيت بك بدعوة في جوف الليل بركعتي قيام.

دمت لي ودام نبضك ودمنا معا دنيا وجنة بإذن الله يا «إيجاستس».

***

أما أنتَ فلا كلمات في قاموس لغتي توفيك حقك، لقد كنت خير الأخ وخير الصديق خير الملجأ وخير الملاذ، سكني وسكينتي، أماني ومأمني.

لا أراني الله فيك مكروهًا.

«My peter pan»